فوزي كريم

يوميات نهاية الكابوس



يَوميّات نهاية الكابوس



Author: Fawzi Karim
Title : Diary of The End of a Nightmare
Al- Mada P.C.
First Edition : 2005

اسم المؤلف : فوزي كريم
عنوان الكتاب : يوميات نهاية الكابوس

الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٥

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب. ٨٢٧٢ أو٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ابون سينا-بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٢ فاكس: ٧١٧٥٩٤٢
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

فوزي كريم

يَوميّات نهاية الكابوس



مقدمة

أهواء المثقف العربي والعراقي اللاعقلانية - وهذا ليس عيباً، بل قد يبدو ضرورة في أحيان كثيرة - ذات مخاطر غير محدودة النهايات، حين تدخل بهو الفعل والنشاط السياسيين. المثقف العارف بمقدار الفاصل بين أهوائه والتزام العقلانية في الفعل السياسي المسؤول، يقدر بالتأكيد على الانتفاع من حرارة الأهواء، وتوليد عاطفة نافعة. ولكن التجربة الطويلة مع مساهمات المثقف العربي والعراقي في الفعل السياسي، والايديولوجي، أثبتت العكس تماماً.

تحول النص الخيالي، والنص النظري، بين يدي المبدع والدارس إلى يوتوبيا، مثقلة بقناعة قابليتها للتطبيق العملي. صار الشاعر -بدل السعي للكشف عن التباسات الشرط الإنساني، وإضاءة الأركان المعتمة، أو نصف المضاءة في الإنسان - يسعى - على النقيض - إلى فرض حلول سحرية بقوة الكلمة، داخلاً المعترك الأرضي، يداً بيد مع المغامر السياسي، لتطبيقها. طبعاً عادة ما يكون الشاعر أو الكاتب الخيالي، لضعف تأثيره العملي وضعف حيلته، مع السياسي، أو تحت ظله، أو خلفه، يزوّده بدفق المشاعر التي يفتقدها الأخير، ثم مع الأيام يجد نفسه وقد تقزّم إلى مؤيد ومطبّل، للسياسي الذي تسلم زمام السلطة.

حدث هذا بصورة غاية في الملموسية والتاريخية مع ثقافة ورؤى البعث القومية، والثقافة المعارضة لها في العراق. خرج الشاعر الذي لا يرى إلا "جنةً عرضها الوطن العربي"، معززاً بالشاعر المعارض له الذي يراها جنة " بذلة العمال الزرقاء". وبدأت معهما مخاضة الدماء، التي انتهت بصعود الدكتاتور.

أكثر من نصف قرن لم يترك فيه هذا المعترك الدامي بين الأهواء الثقافية، التي أخذت لبوس السياسي ونزلت إلى الشارع، فرصة لرئة العربي والعراقي للتنفس الصحي. وكما ابتنى معترك الأهواء اللامسؤولة سلماً لصعود الدكتاتور، كذلك ابتنى الدكتاتور سلماً لبلوغ نهايته المحتومة.

هذه أوراق بمثابة يوميات، كنت أكتبها في لندن. يوميات تتأمل، داخل المساحة الزمنية المتبقية للدكتاتور، خطوات الزمن باتجاه نهاية الكابوس.

فوزي كريم
لندن ٢٠٠٤/١/١٣

وحدة الشاعر المفتقدة

في سنة السبعينيات الأولى كنت أعيش في بيروت. تركت التدريس في سنته الأولى، فالتشرد يليق بأول الشباب. انحدرت لدمشق، وكان فيها مؤتمر للأدباء العرب. هناك التقيت الشاعر حسين مردان.

عرّفني عليه سعدي يوسف، وتركنا في صحبة استثنائية. كان حسين يقول لي: إنني أثق بموهبتك، لأنك معتدل بشأن التجديد وتحترم موروثك. يقولها وكأنه يجلس على قمة مرتفع. وأنا أضحك عاري القلب، ، لأن حسين مردان، حين نتحدث، يُشعرني أنه خارجُ دائرة الأدب، الذي يأتمر بشأنه الأدباء . داخل الاسطورة التي تعرّفتُ عليها في الكتب، وبحثت عنها في العزلة. شاعر يأكل مثل أوفيد، ويحتسي خمرته مثل أبي نؤاس، ويسير وحيداً مثل رامبو، ويعشق مثل بودلير، ويخشى الليل مثل الأطفال، ولا يعرف لمَ يقرأ الكتبَ، ويكتب الشعرَ، ويعاف الوظيفةَ، ويجد ألفةً مع امرأة الليل المجهولة! حين نكون معاً أمسّ البشرة الخشنة للشعر فأجدها حقيقة لا خيالاً. أقول له معقّباً على رأيه فيَّ: أبو علي، أنا لست معتدلاً بشأن التجديد بل حذرٌ منه لفرط السهولة الخادعة في مظهره، ولا أحترم الموروثَ بل أعيش فيه، لا عن فضلٍ ومنّة، بل عن ضرورةٍ لا خيار لي فيها! كل سائد ينتمي إلى دائرة الأدب، وأنا لست أديباً. الجديد فيه موضة سريعة الزوال، والموروث يصون

الكيان الشعري عن تـارعها القشري. أنا واليقين طرفان متعارضان. وها أنت تشهد كم يزدحم الشارع بالعقائد اليقينية. إنني لست حراً، ولا آمن الحرية كثيراً. لأن كل حرية ما إن تطلق جناحيها وتحلق حتى تأسرها شباكُ العقائد المطلقة اليقين. تأسرها وتعطيها صبغتها، وتطلقها ثانية. ألا ترى عدد الحمائم؟ يلتفت حسين إلى نافذة البهو، في فندق أمية، ويضحك. كان يرى الحمائم تتزاحم. لأن الفاصل بين الواقع والخيال في حياته متلاشٍ تماماً. مرة جاء إلى الفندق بعشرات من روايات الجيب المترجمة. غادرنا معتذراً ليختلي بها في سريره، يصرف الوقت معها بدل القيلولة اللازمة. بعد ساعتين خرج إلينا على غير توقع مصرحاً: هذه الرواية الثانية اللعينة مليئة بالوطاويط. وطواط يدخل مرآة الخزانة، وآخر يفلت من النافذة! أخذت قميصي وبنطلوني على عجل، وقلت ألحق بكم. جلس بيننا فدب دفء الوحدة بين الاسطورة والتاريخ في خلايا الجميع. كنت أعرف أن في هذه الوحدة بين المخيلة والواقع، وبين ما وراء الطبيعة والطبيعة، تكمن فرادة هذا الشاعر - الانسان. يكمن عصيانه الدائم على الانضباط داخل الفكرة و المبدأ و الأدب . ولذلك عاش حياته "على قمة أفرست يعلك الصبار"، على حد تعبيره، وحيداً بين المجموع، شارداً خارج الصياغة، جاهلاً وسط تيار اليقين، حالماً تحت نجوم محباته، التي يقول عنها الفانون: إنها مجرد أوهام "أبو الويو" المعهودة.

كنت أعرف أن حسين مردان لم يكن واهماً في لحظة من حياته.

كان يعرف معنى الوهم وهو يتأمل العابرين.

لم يغادر قصيدته باردة على الورق ليدخل ثياباً دافئة.

كانا واحداً، على الورق وداخل الثياب.

٢١/٧/٠١.

ما يحتاجه الشاعر

يقول الآخر محتجاً: كيف يمكن أن يحيا الإنسان دون عقيدة، ودون إيمان؟! أنا الآخر أقول ذلك. ولكنني أقول أيضاً إن الشاعر والفنان والفيلسوف والعالم يحتاج إلى شيء غير هذه العقيدة وغير هذا الإيمان. لكي يرى الحياةَ والإنسان والأفكارَ لابد من فاصل بينهما. لابد من مسافة لكي يرى بوضوح. الجواهري يقول في قصيدته عن أبي العلاء: "شيخ أطلّ عليها مشفقاً حدبا..." ، أي على الحياة والإنسان والأفكار. والإطلالة تفترض مسافة، وتفترض علواً، بالمقارنة مع أكثر شعراء العربية الذين، بسبب توحدهم مع الحياة والإنسان والأفكار، يضطرون إلى إحالتها إلى مفاهيم مجردة.

الشاعر باحث عن الإيمان واليقين مثل كل البشر، ولكنه كتب عليه، دونهم، أن يظل كذلك دون أن يصل. كتب عليه أن يوسع من أفقه، ويزداد رحابة حتى يحتوي على كل الحياة والناس والأفكار، بكل ما تنطوي عليه من تعارضات. الاستعارة، وهي جوهر تقنيات الشاعر، ما هي إلا تكوين رمزي مصغر لهذه التعارضات والتناقضات والتنوع في داخله وداخل الحياة. إنها، كما نعرف، تجمع متعارضين لا يُجمعان. وكذلك شأن القصيدة بجملتها. إنها محاولة للتماس بين الواقع واللاواقع، بين الحقيقة والخيال، بين الممكن والمستحيل.

إذن، كيف يمكن التصالح بين احتضان التعارضات والتنوع في زوايا رؤية الحقيقة، وبين الإيمان واليقين بفكرة واحدة وزاوية نظر واحدة؟

إن الميل إلى اليقين غريزة لدى الكائن الإنساني، لكي يأمنَ القلقَ ويسكنَ إلى هدأة البال. الشاعر والفنان والفيلسوف والعالم يملك غريزة مختلفة تماماً، وبسبب هذا الاختلاف أصبح ما هو عليه. الشاعر الإيرلندي ييتس يقول إن الشعر وليد صراع محتدم مع النفس لا مع الآخر. الجواهري له أكثر من إشارة إلى هذا المعنى. في إحداها يقول عن سنوات منفاه:

سبعٌ توهَّمْتُها سبعينَ لا كدراً
لكن لحاجتها القصوى إلى الكدرِ

وفي قصيدة أخرى يفصّلُ هذا المعترك:

تضيقُ بعيشةٍ رغدٍ
وتهوى العيشةَ الرغدا
وتخشى الزهد تعشقه
وتعشق كلُّ من زهدا

وكل هذا معترك مع النفس لا مع الآخر. وشعر الجواهري في تياره الصافي، دون مؤثرات "الأغراض" الخارجية، شعر معترك مع النفس. لا فكرة واحدة يعلّق عليها، كالمشجب، كل كيانه ولا يقين. إنه ابن ظلمة التساؤلات والحيرة:

أنا أعمى في متاهتها
كيفما حطت بها قدمي
لم أجدْ في العودِ من وترٍ
واحدٍ يقوى على نغمي

ولكن ألا تبدو هذه الحيرة واللايقين مقرونة بالعتمة والضباع؟ ربما، ولكنهما عتمة وضباع السعي الذي لا يكل من أجل الاكتشاف. إن رؤى الشاعر والفنان والفيلسوف والعالم لم تتوقف عن الإضاءة منذ ملحمة كلكامش، حتى آخر قصيدة كتبها شاعر حيرة في أيامنا هذه. ودونها تتهاوى الرؤى اليقينية، التي لا تحيد عن الفكرة الواحدة، باردة، عمياء، يجرفها التيار إلى النسيان، لأنها وليدة ظرف تزول بزواله.

٢٨/٧/٢٠٠١

جسدي خرقة...

أريد أن أتوقف معكم عند بيت واحد لأبي العلاء المعري، الشاعر المفضل لدي، لأنه لا يصحبني إلا مع حفنة أسئلة كبرى. أقرأه لكم وأحاول أن أقطفَ منه ثمرةً نافعة. البيت يقول:

جسدي خرقةٌ تُخاط إلى الأرضِ، فيا خائطَ العوالم خطني

المعنى الظاهر لا لبس فيه. المعنى غير الظاهر قابل لكل اجتهاد. ولكن المسألة التي حفزني إليها البيتُ غير معنية بدلالته، بل بموضوعة الجمال والقبح في الفن والشعر خاصة. نحن اعتدنا، في موقفنا النقدي الذي نحكم بوساطته على النصوص، وفي ذائقتنا التي نحقق بها المتعةَ أو نقيضها، على ربط الجمال بالشكل. ولذا نتحدث عن الأسلوب الجميل، والتناول الجميل، واللغة الجميلة، والشكل الجميل. وعلى هذا الضوء حكمنا على نثر طه حسين، وعلى شعر نزار قباني.

في بيت أبي العلاء، بهذا المعيار الذي اعتدناه، تثقل علينا هذه الحروف الخشنة: الخاء والطاء كثيراً، في : تخاط، خائط، وخطني. وبهذا المعيار تبدو هذه الحروف والإلحاح عليها نابيةً على الأذن، التي تطمع بما يطرب، وقبيحة .

ولكني، على امتداد سنوات صحبتي لهذا البيت، وتكراري له، لم ألمس خشونته ولا قبحه. كما أني لم أر أحداً، ممن أعرف، التفت إلى هذه

الخشونة والقبح، على كثرة من قرأته لهم. ردة الفعل الوحيدة التي شهدتها منهم هي الدهشة. تأخذهم مرغمين، والالتماعة المفاجئة في أعينهم. التماعة من يقف أمام أمر مهيب، يتصل بقدر الكائن البشري، العصي على الفهم.

كيف ننظر إلى هذه الاستجابة لبيت من الشعر. كيف نفسر ردةَ الفعل بالفم الفاغر، بفعل الإحساس بالعمق، والغموض، وحتى بالروع؟

إن الدهشة التي تأخذنا بفعل التماعة الحقيقة الخاطف، هي دهشة من يرى، وللحظة، أرفع آيات الجمال. تماماً كما رأى موسى الجبلَ الذي تجلّى ربُّه له (وخرّ موسى صعقاً).

ما من جمال حقيقي يتولد من سطح أو مظهر خارجي. اللوحة التشكيلية والقطعة الموسيقية تتوسل مظهراً خشناً قبيحاً أحياناً كثيرة لكي تكشف عن جمال الأعماق الخفية.

إن بيت أبي العلاء، يضع شعرنا العربي وذائقتنا لهذا الشعر، على مر العصور، وخاصة في مرحلة حداثتنا، موضع المحاكمة بشأن مفهوم الجمال، الذي طالما اعتدناه شكلياً، وعلى السطح.

الثمرة التي يمكن أن اقتطفها لكم من خبرة القراءة في هذا البيت هي ثمرة أن الجمال يكمن في المعنى الشعري الخبيء وراء السطح، لا في الشكل، الذي كثيراً ما نسميه أسلوباً. ومعايير الرداءة أو القباحة، وهي معايير تكاد تهيمن على كل قراءتنا الشعرية وذائقتنا، إنما هي معايير شكلية وقاصرة بالتالي. وكم أبيات اختارها لنا النقاد نموذجاً لسهولة مخارج الحروف وحسن الصياغة ورشاقة الحركة لا تكشف الذائقة فيها عن أي جمال حقيقي وراء سطحها الفورمايكي.

أعد قراءة بيت أبي العلاء مرات، ودع الخاء والطاء تجرح مخارج الصوت حتى يبدو النسيج خشناً. عبر هذا النسيج الخشن ستبدأ بتحسس خشونة الرؤيا الشعرية العلائية:

جسدي خرقةٌ تخاط إلى الأرض، فيا خائط العوالم خطني

٠١/٨/٤

أفق الشرق المفتقد

أقرأ الشعر الهندي والصيني، والإيراني، والتركي باللغة الإنكليزية، وهي وساطة نافعة دون شك. وأجد، دائماً، غنى روحياً في هذه القراءة. ولكن داخل هذا الغنى الروحي كثيراً ما تنبعث رائحة تشبه رائحة صلة الرحم، هي رائحة الانتساب للشرق، لا أشعرها عادة وأنا أطالع الشعر الأوروبي، والغربي عامة!

ولكن هذه الرائحة تثير حيرةً وتساؤلات أيضاً. فشاعرنا، والشاعر الهندي، والصيني، والإيراني، والتركي جميعاً في ثقافتنا الشعرية المعاصرة، يعتمدون مصدراً يكاد يكون واحداً، هو المصدرُ الأوروبي، أو الغربي عامة! مع أن رائحة صلة الرحم تلح في داخلنا على إشباع ميولها الطبيعية. تقول لي دائماً إن حاجتي إلى النص الشعري التركي، والإيراني، والصيني، والهندي أعمق جذراً من حاجتي لقصيدة إليوت، وأودن، ورامبو. على أن الحاجة لنصوص هؤلاء لا تحول بيني وبين الحاجة لنصوص أولئك! ولكن ثقافة الغرب أصبحت هي ثقافة عصرنا. وبمقدار ما في هذا من صحة، إلا أنه غمر الشعر العربي أيضاً بظله. فأصبح شعر الغرب هو شعر عصرنا! مع أن العصرية ليست معياراً من معايير حقيقة الشعر، خاصة هذه العصرية المحددة بمكانية وزمانية حضارة الغرب.

إن في هذه المفارقة تكمن جذور اغتراب حقيقي داخل كيان شعرنا الحديث، وأكثر، داخل كيان شعرنا، الذي يزعم أنه تجاوز حداثته، تماماً كما تجاوز شعر الغرب حداثته! إن هذا الاغتراب في شعر أحدنا شديد الوضوح، ولكن أحداً لا ينتبه اليه لشدة شيوعه وطغيانه، وكأنه طبيعة جوهرية فيه. إن أكثر قصائدنا اعتمدت قاعدة مقلوبة، فهي لا تبدأ من قاعدة المحلي إلى أفق العالمي، بل تبدأ من قاعدة العام ثم تحاول الانحدار إلى المحلي. ولكن هيهات! فمن يبدأ محلقاً لن يحقق قاعدة لجذوره. والجذور لا تنبت إلا في البدء، على كل حال.

هذا ما حدث لنا جميعاً. فنحن تعودنا، منذ أكثر من نصف قرن، على التطلع لجهة من الأفق واحدة، هي جهة الغرب. وقد يصح هذا في حقل العلوم، وحتى في حقل الفكر. ولكنه لا يصح أبداً في حقل الشعر، وما يحيطه من حقول الإبداع الخيالي عامة. لأن الانتفاع من الشعر الآخر يتطلب مجرى دفيناً داخل التاريخ، داخل الماضي، داخل الوجدان الجماعي للشعوب، التي اختلطت فيها شرايين التاريخ، والأسطورة، والأديان، والحضارات بصورة لا مجال للتمييز فيها.

القصيدة العربية الحديثة لن تحقق حضوراً صحيحاً إلا إذا التفتت إلى ضرورة إعادة هذا التوازن المفقود، وضرورة الاستدارة، في التطلع، إلى أفق جديد، هو أفق الشرق. ففيه، بالتأكيد شعر عظيم أيضاً، وفيه وعد بثمار أوفر صحة وفائدة.

٠١/٨/١١

بالونة النظريات

تنظر اليوم إلى النشاط النقدي، في حقل الأدب، فتُدهش. لأن هذا النقد يخرج من بالونة النظريات.

الموهبة النقدية الشابة تولد، تنشأ، وتنضج في حقل النظريات النقدية الذهني. وهذه النظريات النقدية، بالإضافة لذلك، ولدت ونشأت ونضجت في تربة الغرب. تأتي الموهبة الشابة، تقطف ثمارها الجاهزة. تستسلم إلى مذاقها، تتبناها، وتباهي بها. ولكي لا تتحرج، وهي تنظر في مرآة نفسها، تحاول، وهي تتكلف الجدية، أن تكون ربيبة الحداثة الغربية، أو ما بعد حداثتها بصورة ندية. بحجة أن هذه الحداثة وما بعدها هي قدر كل إنسان على الأرض.

تولد الموهبة النقدية وتنشأ، وتنضج داخل النظريات النقدية الجاهزة. ثم تُقبل على النص الأدبي، والشعري، بصورة خاصة. فيتم لقاء بين عالمين لا صلة بينهما: عالم الشعر، وليد لغة، ومشاعر، وأفكار، وموروث عربي واحد. وعالم النظريات، وليد حضارة ولغة على درجة عالية من التعقيد والتفوق. ما الذي يحل بالقصيدة المسكينة على يد الذهن النظري المغترب عن نفسه؟

سأضرب مثلاً مقرباً.

البنيوية ، التي اجتاحت حركة النقد العربية، من المغرب حتى الخليج، خرجت من تأمل فرنسي، وأوروبي، بشأن اللغة، وبعدها اتضحت معالم التفكيكية ، التي خرجت من محاولة التمرد على هيمنة العقل الغربي على مقدرات الحضارة، على امتداد قرون. الظاهرتان كونتا شيئاً من ملامح ما بعد الحداثة. اللغة فيها فاضت بقوى المعرفة والاتصال والمعلومة إلى حد بعيد. وكذا الحياة والإنسان فاضا بهيمنة العقل؛ فأراد الغربي أن يتشكك، وله الحق في ذلك. على أن تشككه لم يُقبل جميعه وبرضا!

جاء العربي وقطف ثمار الأول فأراد أن يتشكك، مثله، بقدرة اللغة على إيصال الدلالة، وأن يتشكك بدور العقل.

ونحن نعرف أن لغتنا لم تطور قاموساً عن لسان العرب ، الذي يقف صامتاً منذ مئات السنين، وأن حياتنا جملةً تفتقد إلى ضوابط العقل، ولم تدخل مرحلةَ الانتفاع منه بعد.

بمعنى آخر، إننا أشد جوعاً للغة دقيقة ذات دلالة، ولسيادة عقل قادر على أن ينتشل الحياة والإنسان من تخلفه ومن فوضاه!

نصوص النقد، لذلك، تقف ذاهلةً، هذه الأيام، عن نفسها، وعن النص الذي أمامها، في محنة مع نفسها ومع النص الأدبي. ركامٌ من مقالات الصحف والمجلات ومن الكتب يعافها القراءُ من مجرد قراءة العنوان، أو الفهرس.. إلا أن كتابها النقاد يواصلون، وتواصل الصحف والمجلات ودور النشر، مثل كتيبة خرساء، لا ترى ولا تسمع.

١٨/٨/٠١

أطفال الليل

في مهرجان جرش قرأت مرتين، كنت فيهما أشبه بجهاز تسجيل. يحدث ذلك أحياناً في المهرجان الرسمي. الجمهور فيه يحمل عواطف جاهزة لأغراض شعرية متوقعة. على أني كنت في عمان دون غرض، غير التطلع إلى أصداء خطى العراقيين على أرصفتها. في مقهى "السنترال" جلست إليهم، ومعهم أكلت كباب الكاظم أكثر من مرة. في كل يوم يطل وجه جديد، عميق السمرة، عميق الأسى. يحمل كتباً كالعادة، ويضع أوراقاً يستجير بها لرجل التحكيم في الأمم المتحدة، لعلها تكون جوازَ مرور للمنافي المجهولة. وأنا لا أكف عن ترديد: ألف مبروك على المنفي الأخرس الصامت، ألف مبروك على الليل الطويل المقبل. في زيارات سابقة لعمان ودمشق رأيت عشرات من هذه الوجوه، سبق أن حملت الكتب ذاتها والأوراق ذاتها، ولقد وجدت مستقرها الآن. أطفال الليل هؤلاء لا يكفون عن كتابة الشعر، يسحبون النثر من عروته ويعبثونه بالشعر، بفعل الشاس أرواحهم، بفعل الشاس ما حدث لهم، وما يحدث، وما سيحدث! حين يدب الليل يهجرون بيوتهم. يهجرون مقهى "السنترال". وبفعل جاذبية أجسادهم، وبفعل الإحساس بالبرد، برد من ألقي عارياً على الرصيف، يبدأ تقاربهم، وتجمّعهم الأثير على رصيف

بعينه مقابل المقهى . هناك تستند الكتلة الشعرية، المهجورة، الطريدة، المتنهكة، اليتيمة على القاطع الحديدي، الذي يفصل الرصيف عن العجلات المسرعة. يفصل الرصيف عن الهاوية.

وسط هذه الكتلة، التي تشبه تزاحم الأسئلة حيث لا إجابات، كنت أصرف الوقت في الحديث. ومن هذه الكتلة تم الاتفاق على إقامة أمسية شعرية: لم لا نجتمع في بهو، بدل هذا الرصيف؟ شاعر يلتقي بجمهوره العراقي، بعد ربع قرن، على مشارف النهايات! وتم الاتفاق سريعاً بيننا. وبعد أيام وجدت نفسي في إطلالة على مدينة عمان، في بيت الشعر هناك، ومع جمهور عراقي طالما افتقدته، وطالما افتقده كل شاعر عراقي في منافينا البعيدة. كنت أقرأ ونظرتي لا تخطئ الأسماك وهي تتواثب بين أمواج مشاعرهم. لا تخطئ رائحة الطلع تتدفق من سحناتهم. لا تخطئ الأقمار، وهي تأتلق في ليل الحدَقات العميقة:

الشعر أباطيل

إن لمْ يستر عريانا

قضّيتُ العمرَ به مُزدانا،

والناسُ عرايا حولي.

٢٥/٨/٠١

ضفادع الجواهري وأورويل

في لحظة نادرة يقف الجواهري إزاء كائنات الحياة الصغرى، مغنياً، متأملاً، ومسبحاً. نادرة، لأنه اعتاد الوقوف إزاء الأشياء الكبرى، منشداً، يقيناً، ومتعالياً معها. والشعر عادة ما يخرج من الأولى، على غير الظاهر الذي وجدنا أنفسنا متفقين بشأنه.

في قصيدته "المقصورة" واحدةٌ من هذه اللحظات النادرة. فهو في غمرة مشاعره الاحتضانية لوطنه، والتي تبدأ بـ "سلام على هَضبات العراق..."، يتدفق بحب قلبي رائق، غريب على الطبيعة الغاضبة في القصيدة: حب يحيط النخلَ، سعفاته، ورطبَه، وعذوقَه في موسم الطلع والحمل واليبوسة، ودجلةَ التي تُري العراقيُّ في الحالتين.. ، والقمرَ الليلي والنجوم، والجسر، والضفادعَ، والحمامَ، والجنادبَ، والبومَ، والثعلبَ، والديكَ، والقطارَ، وعاطرات الحقول...

ولكن جاعلات النقيق.. تستحق أكثر من وقفة تأمل تليق بوقفة الجواهري التأملية. إنها من اللحظات النادرة، التي يخترق بها الشاعر سطح الحياة الظاهر إلى غير المرئي (غير المرئي من قبل العين التي أعمتها العادة). فمن يتوقع هذه الوقفة المفاجئة المسحورة أمام ضفدع، من قبل شاعر ترعاه عين الزمان، ويهفو لجرسه سمع الدُّنى.. ، ولا ينى يردد على نفسه:

تسامي فإنك خير النفوس.. !!

الجواهري، في الأبيات الثلاثة عشر الضفدعية، بدأ لي أسمى منه في كثير من قصائده المتعالية، التي تتعامل مع الهموم الكبرى (كبرى بالعرف السائد). إن كلمة "سلام" فيها لتبدو أرق من دمعتين في عين إله الشعر لدى الأقدمين: "سلام على جاعلات النقيق..". وهذه المعاتبة التي تشبه تنهدات من صدر الأرض: "لعنتُ من صبية لا تشيخ.." ، وهذا التقافز، كتقافز الجن، بين الصخور، والاندساس تحت مهيل الرمل.

كتب الجواهري مقصورته عام ١٩٤٧ وفي العام المجاور لعام انشغاله برسالة محبته القلبية إلى الضفادع رُسلِ الربيع ، كان الروائي الانكليزي جورج أورويل منشغلا بكتابة واحدة من أجمل مقالاته الأدبية: "بضعة أفكار عن الضفدع"(١٩٤٦).

أورويل يرى في الضفدع مظهراً روحياً، الجواهري يرى فيه السمح الذي ينادم ركب الخلود. ويرى لديه أورويل "أجملَ عينين وُجدتا لمخلوق حي، عينان تشبهان الذهبَ، أو بصورة أدق، الحجرَ الكريمَ ذا اللون الذهبي" ، تماماً كما وجدهما الجواهري "ياقوتتين صاغهما جوهري". ويعجب أورويل " بأن الشعراء لم يؤخذوا بهذا المخلوق الآسر"، تماماً كما استنكر الجواهري "من عابهنَ بما لا يُعاب" ، وكأن قصيدته استجابة لحيرة الكاتب الإنكليزي، من ركن قصي ومنسيّ.

٠١/٩/١

ما الموسيقى الجدية

إذا كان بيتهوفن أكبر عقل ألماني في مطلع القرن التاسع عشر، وهو الموسيقي الذي لم يمارس الكتابة. فما الذي يختفي وراء أعماله الأخيرة إذن؟!

وتوماس مان، حين يجد سعادته المثلى تتحقق في الساعات التي لا حدود لعمقها، يصرفها مع موسيقى ڤاگنر - هذه السعادة عقلية وروحية معاً، كما يقول - فأي غذاء فكري يفيض من أوپراته تُرى؟! ونحن نعرف أي طراز من كتاب الجد توماس مان...

بوسوني (1866-1924) Busoni الإيطالي الأصل الألماني النشأة، تلح عليه الرغبةُ بالقبض على المجهول: "ما أعرفه الآن هو اللامحدود، ولكنني أطمع بالذهاب أبعد في كونشيرتو البيانو"، الذي يمتد لأكثر من ساعتين. فأي هدف أعمق مدى في حقل المعرفة من محاولة القبض على المجهول؟!

عازف الچلو الشهير كازالس (1876-1973) Casals يقول إنه يحتاج موسيقى باخ كلَّ صباح أكثر من حاجته للماء والطعام. والفيلسوف الدنماركي كيركگور يقول إنه مدين لموتسارت بكل شيء. كما أن برناردشو يعتقد بأنه تعلم من موتسارت بأن يقول أشياء مهمة في حواراته. هو المفكر العقلاني!

فما الذي يتخفى وراء ألحان باخ، موتسارت من قوى روحية وفكرية تغذي عقلاً لكيركگور وبرناردشو؟!

باسترناك لا يقرن الموسيقي الروسي سكريابن Scriabin (1872-1915) إلا بدستويفسكي وبلوك: " فكما أن الأول ليس روائياً فقط، والآخر ليس شاعراً فقط، فالثالث الموسيقي ليس موسيقياً فقط، بل علة مهرجان ثقافة روسيا وتمجيد انتصاراها".

هذه الموسيقى لا يمكن أن تهدف إلى التطريب والتسلية وحدهما، لأنها، بتعبير أمرسون: تأخذنا خارج المعتاد، ولنا تهمس بالأسرار الخفية، التي تثير الروع مثل: من نحن، ولأيّ علة، ومن أين، وإلى أين؟

والحياة تبدو للفيلسوف نيتشة ضرباً من الخطأ دون موسيقى. وهذه الأخيرة، بالنسبة للفيلسوف إفلاطون، قانون أخلاقي. إنها تعطي روحاً للكون، وجناحين للعقل، وقدرةً على التحليق للمخيلة، وسحراً للحزن، وحياة لكل شيء.

إخوان الصفاء، الفارابي، الغزالي... وآخرون لم يقولوا شيئاً أقل جدية من هذا بشأن الموسيقى.

الهاجس الذي يدفعك للبحث، في رفوف الكتب، عن عمل لأبي حيان التوحيدي، أو لأبي العلاء المعري. أو لنيتشة، أو لتي.أس.إليوت هو الهاجس ذاته الذي يدفعك في مناسبة مختلفة، للبحث في رفوف الأسطوانات، عن عمل لباخ، أو لبيتهوفن، أو لڤاگنر.

هذا الهاجس تصح عليه صفة الجدية، في مقابل هاجس لا يطمع بغير التسلية وقضاء الوقت برواء واستراحة.

هذه تداعيات قد تنطوي على إجابة كافية لتساؤل البعض عما

أعنيه بالموسيقى الجدية. وعما أعنيه بفقر موسيقانا من هذا الجانب، حيث لا رفوف للأسطوانة تقابل رفوف الكتب، التي نلجأ إليها ، حين يدفعنا هاجس البحث عن التوحيدي، أو المعري، أو نيتشه، أو إليوت.

٨/٩/١٠٠

المعارضة: المعادلة الخاطئة

النسبة الكبرى من الملايين الذين هجروا وطنهم العراق هاربين، في أسوأ الأحوال من الموت، أو متحاشين، في أحسن الأحوال، المهانة وسوء الظن، هي من الطاقات والعقول الشابة، التي استخدمت الكلمةَ في التعبير والإعلام والنغم والحركة والتمثيل. هؤلاء في مجموعهم هم الطاقة المثقفة. شعراء، وروائيون ، وكتاب، ومسرحيون، وصحفيون، وفنانو تشكيل ونحت، ومسرح، وسينما، ومفكرو علوم اجتماع، وفلسفة وتاريخ، ونفس، وممارسو علوم عملية من أطباء، وصيادلة، ومهندسين، ومعماريين، ورجال قانون... إلى آخر ما نعرف من المواهب العراقية الثرية.

هؤلاء جميعاً هربوا من الموت والمهانة، وفضلوا حياة الكفاف واللايقين، في هذا المنفى الغامض، على الموت والمهانة الأكيدين. وتوهج مواهبهم وقدراتهم في فراغ هذا المنفى الموحش هو أرفع مستويات الاحتجاج، وأسمى المعارضات ضد ظل الطاغية الذي يحيط بالوطن كله. القلوب المعبرة، والعقول الباحثة أبداً، لم تعرف هدأةَ الإجهاد أو اليأس على امتداد ربع قرن. الكتّاب يخرجون كتبهم، حارةً بفعل العوائق والمشاق. ويصدرون مجلاتهم وكأنهم يتحدّون الخرس الذي يحبطهم

مرتاباً. ما من جالية منفى ثقافي أصدرت مجلات كالجالية العراقية: الاغتراب الأدبي، الثقافة الجديدة، المسلة، اللحظة الشعرية، فراديس، عيون، الأيام، غجر. تتنفس وائفة، حتى لو شح الهواء وضاقت الرئة. وما من صفحات جرائد ومجلات حفلت بأقلام أكثر كثافةً من الأقلام العراقية. ولك أن تتخيل مواهب الفن التشكيلي، وللعراق منه إرث استثنائي، ومواهب النحت، ومواهب المسرح، التي تبدو خشبة عائمة في فضاء لا مستقر فيه. ولك أن تتخيل عقول العلم وهي تتكاثر كالنخل على امتداد قارة أوروبا وأميركا، وغيرهما من قارات الأرض. لك أن تتخيل شعباً من المثقفين تمثل كل حركة فيه، وكل بادرة، وكل فعالية، صورة سامية من صور الاحتجاج والمعارضة، ضد دكتاتور أبله، دموي، وردي.

إنني لم أعرض لهذه الظاهرة - الكارثة كاشفاً عن سر، فهي أقرب إلى البديهة، يعرفها كل عراقي، وكل عربي، ولا يجهلها الغرباء.

إنني أعرض لها ظاهرةَ احتجاج ومعارضة، أرادت ذلك أو لم تُرد، محاولاً، بقصد التساؤل، مقاربتَها بالمعارضة التي تقدمت الصفوف بفعل تمثيلها السياسي.

أين هذه من تلك؟

وإذا كانت ظاهرة الاحتجاج والمعارضة الثقافية بهذا الحجم، الذي يذكرنا بكثافة النخيل، فلم لا تقربها المعارضة السياسية، تحاورها، تلتحم معها، وتنتفع بها؟

ورجال المعارضة السياسية، من تراهم يمثلون خارج هذه الآلاف من العقول المتزاحمة في منافي الغرب والشرق؟

ولمَ ترجع المعادلةُ الخاطئة ذاتها، حتى ونحن خارج سطوة الدكتاتور، حيث آلاف المثقفين لا يمثلون إلا أنفسهم، وحيث أنفارٌ من السياسيين يمثلون الناس أجمعين؟!

١٨/٩/٠١

آخر الشوط

أشعر أنني قطعتُ شوطاً، منذ أكثر من عقدين في المنفى، لا يشبه مراحل الدراما الثلاث، التي تنتهي بعد الذروة بالحل. ولا مراحل العمر، التي تنتهي بسكينة الشيخوخة، وما بلغتها بعد. إنه شوط لا يقل غرابة عن الشوط الذي يقطعه لاعب السيرك، بعد التهريج الضاحك، الذي ينتهي مع الدمعةِ الوحيدة على الخد الملطخ بالأصباغ، داخل جدران الوحدة.

الشاعر يبدأ، مع أول مراحل المنفى، كمهرة بعد ساعة الولادة. مهرة أمامَ مرج مليء بغرائب وغنى الطبيعة، تأخذ خطواتها فيه على حذر، ولكن بتوق المتعطش إلى الحياة الجديدة، ثم سرعان ما يبدأ التجوال الحر، وقطفُ الثمار، واستعادةُ الفتوة.

الشاعر يتعلم لغة جديدة، تشبه فردوساً فيه ما يشتهي العقل والقلب. اللغة الانكليزية تعوض عن كل اللغات، حتى الموروث العربي بعيد اكتشاف نفسه عَبرها. وكذلك ثقافة الشرق. وإذ يصبو إلى الموسيقى كمصدر للمعرفة، تفتح لندن له من أجل ذلك أكثر من ذراع، حتى لتبدو عاصمة للموسيقى دون منازع. وكذلك حين يصبو إلى الفنون البصرية جميعاً.

يحيط بكل ذلك، كما تحيط المهرة بالمروج. ثم تحوجه هذه الإحاطةُ إلى الوحدة المختارة مع النفس، من أجل أنْ تقطر عصارتها، عصارة خبرة المعرفة، على الورق، في نص من الشعر أو النثر، يهب بعدها، شأن المهرة، عائداً إلى المروج.

وهكذا يلملمُ ثمارَ نشاطه الروحي بين حين وآخر لينشره على الناس، مليئاً بالثقة، متعالياً على بعض عثرات المنفى، متعالياً على الحياة الغريبة، التي لا تكف عن الهمز واللمز من حوله، بأنه يوهم النفس، شأن المهرج، بالدور الضاحك.

مرة ينتبه إلى أنه، حين يلملم ثمار نشاطه الروحي لينشره على الناس، إنما ينشره على لا أحد. فيكتب نصاً شعرياً أو نثرياً عن ذلك!

ومرة ينتبه إلى أنه، حين يعود إلى الوحدة، يجدها لا تشبه في شيء وحدةَ العائد من مكتبة الدرس والبحث. أو وحدة العائد من مباهج مروج الخبرةِ والمعرفةِ، بل عودة المهرج من سيرك إيهام النفس، من سيرك المنفي. فيكتب نصاً شعرياً أو نثرياً عن ذلك.

وهكذا تتزاحم نصوصه من حوله. تزاحمه نصوصه. ثم يبدأ يتحاشى النظر إلى المرآة، خشية أن يرى نفسه منفياً.

من هذه الخشية يبدأ آخرُ الشوط، الذي قطعته منذ أكثر من عقدين من الزمان. آخر الشوط الذي بدا لي، وبا للمفاجأة، حائطاً إسمنتياً لا منفذ فيه.

هل هذا آخر المنفى؟ أم هو المنفى الذي لا عودة فيه؟

٢٢/٩/٠١.

من هو المثقف السياسي حقاً؟

أكثر ما يستعصي على المثقف العربي أن يحدد معنى السياسي، الذي يلحق كصفة بالإنسان، أو بالموقف: ما هو، ومن هو؟

تجربتي الشخصية كعراقي جعلتني على علم بالمفهوم التالي حول المعنى المتداول للسياسي: الإنسان السياسي هو الملتزم بموقف عقائدي، أو المنتمي حزبياً. والموقف السياسي هو ثمرة هذا الالتزام والانتماء. ومن شأن أي مثقف أن يجيب بيسر عن موقفه، حين يُسأل: ما هو موقفك؟ أما الذي يعجز عن الإجابة، أو من يقول بأن لا موقف له، فهو غير سياسي ولا تليق به، بالتالي، صفة مثقف. ونحن نعرف أن صفة سياسي، بهذا المعنى، تكاد تكون مرادفة لصفة مثقف، في المعترك العراقي على امتداد نصف قرن.

في الستينيات كانت الموجة الصاخبة أو الجبة (صفتان استعملتا في عنواني كتابين لسامي مهدي وفاضل العزاوي حول الجيل) موزعة على مقاه حسب الانتساب العقائدي، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين. وكان كل مثقف لائقاً بصفة "سياسي"، لأنه قادر على الإجابة حين يُسأل عن موقفه.

في الستينيات كان هناك، بالتأكيد، كتّاب وشعراء لا يميلون إلى واحدةٍ من هذه المقاهي العقائدية. كتّاب وشعراء يجدون في الإجابة عن "ما هو موقفك؟" أمراً مستحيلاً. ولذلك لم أجد لهم أثراً في الكتابين

اللذين أرّخا لهذا الجيل. والكتابان محقان في ذلك. لأنهما يؤرخان من وجهة عقائدية لمرحلة عقائدية. فما قيمة محمد خضير، الذي لا يملك إجابة عن أي موقف، ولا تشغله الأفكار اليقينية؟! قاص غارق في مملكة الإنسان الباطنية السوداء. شأنه شأن شاعر مثل محمود البريكان، الباحث عن الوحش الرابض في كهف الباطن الذي لا يقل سواداً!

ما كان أحد منهما مثقفاً سياسياً في العرف العقائدي العام. صرت أنا الآخر أعرف ذلك عن خبرة. الوعي السياسي يفترض زاوية نظر. وما من إنسان يفتقد هذه الزاوية، وهي بديهة. إلا أن زاوية النظر هذه توجّب عليها أن ترتدي عدسةً بلون. فأصبحت كلُّ زوايا النظر بنظارات ذات مقاس محدد، يُرى بها الشيءُ، والمشهدُ، والإنسانُ، والمحيطُ، والكونُ بهذا المقاس، في المدى ودرجة اللون. حتى صرت أسأل المثقف السياسي: كيف يتخذ موقفاً من أمر تنعدم بينه وبينه الرؤيةُ ؟

مع الأيام صرت أجرؤ على السؤال الاستنكاري، خاصة وأن الكلمات والأفكار والعقائد لم تعد، بسبب عماها، تولّد عثرات فقط، بل تحولت من كتب ومقالات ولافتات ومكبرات صوت إلى ثعابين وسكاكين وحبال شنق، ثم تجسدت في هيئة دكتاتور قادر على اختزال الإنسان إلى مجرد فكرة لا يعرف أحد مقدار صحتها أو كذبها. ومن بين أصابعه تفجر نهر الدماء.

واليوم، وأمام الشاهدة الجماعية للقتلى بلا عدد، لم يعد المثقف السياسي يجيب على سؤال "ما هو موقفك؟" دون إشفاق على النفس. ينزع عن زاوية النظر نظارة العقيدة، ثم يهمس: لا موقف لي!

اليوم صرت أجرؤ على سؤاله: من هو المثقف السياسي حقاً؟

٢٩/٩/٠١

من يجرؤ على المثقف؟

على امتداد السنوات العشرين الأخيرة، لمْ تفارق رأسي ومشاعري فكرةُ أن المثقف العربي لعب دوراً خطيرا في إرساء قاعدة تهديم المؤسسة والدولة، ودفع موجة الانقلاب (الثورة) إلى ذراها، التي تجسدت بهيئة دكتاتور. هذه الفكرة نضجت مع السنوات وأصبحت أكثر تعقيداً. على أن التوفيق بين هدم الدولة و بناء الدكتاتورية ليس عصياً على أية خبرة، مهما كانت فقيرة. إلا أن الجانب المعقد فيها يكمن في إمكانية الإقناع، لأن هذه الفكرة تخاطب المثقفين الذين لا يحسنون، منذ نصف قرن، سوى صياغة أسلحة اتهام الآخر لا النفس، وسوى صياغة سبل للمحاجة، لا سبل للحقيقة.

المثقفون عززوا قداسةَ الفكرة. وهم يعرفون أن قداسة الفكرة تعني، وبصورة مباشرة، تهميش الإنسان. وإذا تمثلنا مناخَ الطقوس الأولى، فإن قداسة الفكرة تحوجُ الفكرة إلى أضْحيات. وتهميشُ الإنسان يهيئه لأن يكون هذه الأضحية. ونشيدنا القومي يقول:

لبيك يا علمَ العروبة كلنا نفدي الحمى
لبيك، واجعل من جماجمنا لعزك سلّما

وشعرنا الحديث، ونثرنا الحديث يذهب هذا المذهب بصورة مباشرة حيناً، وأحياناً كثيرة بصورة غير مباشرة.

المثقفون بنوا صرح الإعلام لدى الحزب الذي ينتمون اليه، أو لدى

السلطة التي شادها الحزب. وهذا الإعلام يعتمد معايير، تعتمد بدورها على أفكار. ومن يجرؤ أن يمس قداسة الفكرة! وحتى أولئك الذين قُتلوا على مذبح إيمانهم بالفكرة، إنما قُتلوا بيد مؤمنين بقداسة فكرة أخرى! الإعلام يكفل، بأسلحة محاججته، تفنيدَ الآخر المغيَّب. حين تغيب حرارة البحث عن الحقيقة، تنعدم الأسئلة، وينشأ اليقين. وينشأ مع اليقين الحزب، تنشأ اليوتوبيا، مخاضة الدماء.

المثقفون بناة اليوتوبيا في كل مكان، في التاريخ. ولكنهم وجدوا، على مدى سعيهم، مثقفين أشداء في الخلاف معهم ونقدهم. المثقفون لدينا جميعاً ذوو موقف. والقلة، التي وقفت محتجة دون موقف، سرعان ما سحقتها الجماهير، أو عجلة التاريخ (هذان مصطلحان من قاموس ثقافة الإعلام).

ما من حزب قاد انقلاباً، أو عسكري مارس التقليد ذاته ، إلا وجاءا محمولين على أجنحة الأفكار التي عمّدها المثقفون بأرواحهم. ما من عائلة حاكمة تتسلط على رقاب الناس وثرواتهم (وكل سلطة ثورية ذات مبادئ عائلة حاكمة) إلا وهي ثمرة ناضجة من ثمار الشعارات (الأفكار) التي تزاحمت في شوارع المدن منذ الخمسينيات.

من يجرؤ أن يصل خيوط هذه الكارثة، التي تملأ الأفق العربي، بأطرافها الخافية في الكتب ومقالات الصحف والأناشيد؟

من يبحث في سُحنة الجلاد عن نسغ الأفكار المغذية؟

أو يروي حكاية السجين السياسي، الذي يتأمل سجانه عبر القضبان، كيف أصبح سجاناً يتأمل جثة سجينه السياسي تحت التعذيب، ولا يتذكر؟

٦/١٠/٠١

من يقرأ لوكريتيوس؟

إنني على وعي تماماً بمدى الصعوبة
في أن تعيد إلى الضوء، بوساطة الشعر اللاتيني،
كلُّ مكتشفات اليونان العميقة.
أعرفُ أن مصطلحاتٍ جديدةً يجب أن تُستحدث،
لأن لساننا فقيرٌ، وهذي المعاني جديدة عليه.
ولكنني مقتنع، بفضل تفوقك
وبفضل ما تنطوي عليه صداقتنا
من توقع أثير لاحتمال أي جهد،
بأن أواصل مراقبتي
عبر الليالي الهادئة، باحثاً عن كلماتٍ،
عن أغنية تنير العقل
بذلك الضوء الرائع الذي به تستطيع
أن ترى أشياءً عميقة الخفاء...

هذا المقطع للشاعر - الفيلسوف الروماني لوكريتيوس (٩٥ - ٥٥ ق. م)، من قصيدته الفلسفية الشهيرة "في طبيعة الأشياء"...، وهي قصيدة تنطوي على خلاصة الفكر الأبيقوري. وهو مقطع مثير يعنيني

في حديثي هذا، على أن القصيدة الفلسفية بمجملها أكثر إثارة. لك أن تتخيل أنه كتب من قبل شاعر عربي هذه الأيام، يتحدث فيه عن اللغة العربية (أو الشعر العربي) بدل الشعر اللاتيني، وعن صعوبة إعادة كل مكتشفات الغرب العميقة (بدل مكتشفات اليونان) إلى الضوء، عن طريق هذا الشعر العربي (لا اللاتيني). ولك أن تتخيل أن الشاعر العربي يعيش المأزق الروحي نفسه للشاعر الروماني العظيم، أمام الحاجة للمصطلح الجديد، وأمام اللسان الفقير الذي تستعصي عليه المعاني الجديدة. لك أن تتخيل شاعراً عربياً يرتفع إلى مصاف الإحساس بالمأزق، حيث يعرف بعمق ويصدق فقرَ لسانه أمام فيض المعاني الجديدة، التي يعيش في بُحرانها الغرب.

هذا المقطع رائع في الكشف عن المأزق الثقافي للشاعر الروماني. هذا الشاعر الروماني عميق الصدق، والثقافة، والإحساس بالمسؤولية، ولا يجد فاصلاً بين مأزقه الثقافي وسعيه المُلزم لتجاوز المأزق، بفاعلية احتمال الجهد، أي جهد، في أن يواصل مراقبته، عبر الليالي الهادئة، باحثاً عن كلمات، عن أغنية تنير العقل بذلك الضوء الرائع.. ، وهو يقصد ضوء عطايا الحضارة اليونانية.

مادة المقطع الشعري تكاد تصلح بصورة دقيقة على مأزق ثقافتنا العربية ومأزق روحنا. ولكن ثمة فارق عميق مؤسف بين لوكريتيوس والشاعر العربي. فالأول، وهو يعيش مأزق قصور لسانه (لغته) عن المعاني الجديدة، يعرف هذا المأزق، ولا يحب أن يغفل عنه. ولذا فهو مناضل في البحث عن أغنية تنير العقل. في حين يعيش الشاعر العربي المأزق ذاته في قصور اللسان، ويكاد يعرفه، ولكنه يغفل عنه، بإرادة

العاجز أو المكابر، ولذا لا يعنيه البحث عن أغنية تنير العقل. إنه يفضل أن يتوهم تكافؤاً مع الغرب يُغنيه عن الاعتراف بالقصور، ويعفيه من مشاعر الذنب الثقيلة.

وبدل أن يدفعه قصور اللسان إلى الاعتراف المتواضع، شأن لوكريتيوس، ثم البحث الشاق عن الإضاءة من المعاني الجديدة، تراه مدفوعاً، بفعل عقدة النقص، إلى التسامي عن مأزق القصور، وإيهام النفس بمأزق التفوق . ولذا تراه ما بعد حداثي، وبامتياز!

٢٠/١٠/٠١.

الزهرة التي تتفتح في المنفى

حين هرب السياب إلى الكويت المجاور للبصرة كتب، وهو يتطلع إلى حدود وطنه:

عراق ليس سوى عراق.. ..

الجواهري دمغ في حافظة العراقي مناجاته:

حييت سفحك عن بعدٍ فحييني، يا دجلة الخير..

البياتي يعلن في قصائد منافيه هذه النجوى، وهي أكثر حرارةً ووجدانيةً في قصائد منافي سعدي يوسف. وكذا شأن هذه المحبة الممرورة للوطن لدى أكثر من شاعر. ولكن قصائد السياب والجواهري والبياتي وسعدي وآخرين لم تكتب جميعاً في المنفى. فهناك قصائد مماثلة في العدد كُتبت على أرض الوطن.

في قصائد شعراء الأجيال المتتابعة، قصائدنا، التي كتبت داخل العراق، داخل الرحم الطبيعي لميلاد القصيدة، لا تكاد تقع على ذلك الوجدان المحب الحار باتجاه الوطن!

لن تجد أغنيةً نديةً، رضيةً، مستريحةً، باتجاه السعف والنخل والنهر. باتجاه كل مفاتن الوطن.. وكأن هذه المفاتن لا تتفتح زهرتُها أمام بصيرة الشاعر إلا حين يغادرها، مرغماً، إلى المنفى!

لم تُكتب القصائد عن رائحة السمك، وأشواك سعف النخيل، والسَّعد في الشتاءات، وتلويحة ابنة الجيران فوق السطوح، ورائحة العرق الطافية مع الأسماك على جرف أبي نواس، ومعطف عبد الأمير الحصيري كراية يتامى، والسماء العميقة في قاع النهر، وفسيفساء الأجناس البشرية؛ أقول لمَ نكتب القصائدَ عن أرض وطننا حين يكون أحدنا على أرض غير أرضه؟ ولمَ حين يتمرغ بالوحل عليها لا ينشدها قصيدة حب مع قيثارة في يديه؟ لأن هذا الوطن شديد القسوة مع أبنائه؟ أعني أن أبناءه شديدو القسوة على أنفسهم؟ وهم بفعل ذلك لا يلهمهم حضورهم فيه بقصائد الحب، التي يشعرها المصري وهو فوق أرض أم الدنيا، واللبناني وهو في أحضان جبل الأرز؟

إن القسوة الحاضرة مع رائحة التراب تجعل الشاعر العراقي يؤجل محبة التراب إلى حين. يؤجلها إلى مرحلة المنفى لتتفتح فيه. المصري يغني أرض مصر وهو عليها. غنائية أحمد شوقي تولدت بفعل رخاء المحب في أحضان من يحب. لم تكتب قصيدة من مصري عن حب مصر خارج حدود مصر. في حين لم يكتب الشاعر العراقي لوعة الحب هذه إلا من خارج الحدود. إن شعره ذو طبيعة هجائية على أرضه، وذو طبيعة محبة وغفورة بعيداً عنها.

ما علة ذلك؟ هل شغله حبُّ العقيدة، عن حب وطنه؟ وحين يخرج إلى المنفى يخمد مصطرع العقائد، وتزهر من جديد تلك المحبة للسعف والنخل والنهر؟

لا بد أننا نعرف أسباباً عدة!

١٠/١١/٠١.

معنى التطهر، معنى الكتابة!

الكاتب العراقي، في العقود الخمسة الأخيرة، ما كان ليحتاج إلى القصة أو القصيدة وحدهما، أو أي نص إبداعي خيالي، لا يعتمد المباشرة في معالجة أزماته التي تتنازع كيانه التاريخي والاجتماعي والثقافي والنفسي. إنه يحتاج إلى نثر الاعتراف، ومكاشفة النفس، وتأمل ما حدث. ما من أحد قادر على فهم كل ذلك الذي حدث له، في داخله وفي التاريخ. وهو ذاته قد يعجز عن فهم ما حدث، لا بفعل غموضه، أو بفعل عجز في قدرات العراقي، بل بسبب قناعات تحزب لها، وزوايا نظر تحجر في خنادقها. فأصبح يتقن معنى زاوية نظره بما حدث، لا معنى ما حدث بالفعل.

أن يخرج الكاتب العراقي من خندق زاوية النظر إلى العراء. من زاوية النظر الثابتة الجاهزة. من خلف زجاجة المنظور الملونة إلى وسط المشهد. أن يؤلب الكاتب العراقي زميله في الكتابة، وقارئه ، إلى الخروج معاً، كما يخرج الموتى ساعةَ البعث، إلى عراء ما حدث، إلى مئات الآلاف من السجناء والمعذبين بين يدي رجال الحزب ورجال الأمن، إلى مئات الآلاف من قتلى التطاحن العقائدي (عرباً بعرب وأكراداً بأكراد)، وإلى مئات الآلاف الأخرى من قتلى حرب السلطة مع الأكراد،

إلى مئات الآلاف من قتلى حربين لن يقبلهما التاريخ إلا في حقل العبث والحماقة. إلى مئات الآلاف من المطمورين في المقابر المجهولة. إلى مئات الآلاف من المهجرين والهاربين إلى حيث لا يعرفون. وسط هذا العراء، عراء ما حدث. سيجد الكاتب العراقي أن عشرات الخنادق التي هجرها، خنادق زوايا النظر، ليست إلا عاراً لا تتشرف به قصيدة، ولا قصة، ولا أي نص من نصوص الكلام. وسيجد ألوانَ زجاجة المنظور العقائدي لا تليق بفحص جثث القتلى، ولا تنهدات المهجرين والهاربين.

الكاتب العراقي، في العقود الخمسة الأخيرة، كان أحوج إلى أن يراجع كل قصيدة كتبها، وكل قصة، وكل نص من نصوص الكلام. لعلّه يكشف فيها عن خيط من خيوط حبل مشنقة، أو شفرة سكين، أو أصبع مؤلب للضغط على الزناد، أو أثر من قفاز أسود. لعلَّ هذا الكشف يُشعره بأنه لم يكن بعيداً عن ارتكاب الجريمة، وأن مساهمته كانت خفية ولكن عظيمة الفاعلية.

بنشر الاعتراف، ومكاشفة النفس، وتأمل ما حدث، خارجَ خندق زاوية الانتماء، يعرفُ الكاتب معنى التطهر، ومعنى الكتابة أصلاً.

٢٠٠١/١١/١٧

شاعر يحمل قيثارة.. في جزيرة مهجورة

منذ السنة التي أقمتُ بها في لندن (١٩٧٩) وأنا أشعر بأني مع حقيبة سفر، منتظراً في محطة قطار لا هوية لها. أخرج بين الحين والآخر دفتراً صغيراً أخطط فيه، مثل رسام، سكيچاً لقصيدة جديدة، ثم أطويها وأحفظها في الحقيبة. أنا والحقيبة والقصيدة في انتظار. ومما يجعل الصورة كابيةً أن هذا الانتظار لا ينطوي على معنى العودة. لذا اعتادت قصيدتي أن تتحدث عن عودة خيالية، ولكن إلى الماضي. الذاكرةُ والمخيلةُ عنصران أساسيان في هذه القصيدة. الذاكرة تعوي والمخيلة تستجيب. أحيانا أخرى أشعر بأني في بهو مكتبة عظيمة الحجم، وإقامتي في لندن إقامةٌ في مكتبة، كتلك المكتبة التي تخيل بورخيس الفردوسَ على هيئتها. العلاقةُ مع الانكليزي، والمحيط الانكليزي، مستحيلة أحياناً، ومبتورة في معظم الأحيان. إنه كريم معي في حقل المعرفة، يسلمني كتبه جميعاً ولكنه لا يتحدث، يسلمني ما أحتاج إليه وهو يبتسم برضاء ولا يتحدث. الشوارع لهذا السبب مثل جدران البيت، والضجيج الذي يملأ أفق هذه المدينة لا يصلني، فأنا في بهو مكتبة عظيمة الحجم، أنتخب من رفوفها ما يروق لي وما احتاجه، وأنا اقرأ وأكتب ولا أرفع رأساً إلا لكتاب جديد وأوراق جديدة.

وقصيدتي مع الأيام تُشحن بتيارات المعرفة الدفينة، تيارات تشكل العنصر الثالث في قصيدتي، إلى جانب عنصري الذاكرة، التي أعطت للماضي طعمَ، ورائحةً، ولونَ الحاضر، وأقامت فيه، وعنصر المخيلة.

المعرفة، الذاكرة، المخيلة، داخل قصيدة مفترية، عائمة في مجرى ضال، ليس لها قارئ حاضر، ليس لها من هدف محدد، ليس لها وطن بديل، تمتص رحيق أزهار الغرب، ولا تشعر أنها تنتمي إلى حداثته. فالحداثة صفة لمرحلة الغرب الأخيرة، التي يعيشها ونعيشها معه مرغمين، ولكن دون ثمار، لأننا ببساطة على غير تربته التي أنشأت حضارته.

المؤسف أن هذه الموجة أوهمت الشاعر العربي بحداثته. أوهمته بحداثة مصنوعة. فقصيدته تكاد تكون وليداً مشوهاً لقصيدة الغرب المترجمة إلى العربية. والمعرفة في إقامتي الغربية أصبحت دليل قصيدتي للعودة إلى موروثي العربي، عودة اكتشاف وتصفية نقدية. ولأن المعرفة في إقامتي الغربية معرفة موسيقية في جزئها الأعظم، فقد أصبحت دليلاً باطنياً لعودة باطنية. الموسيقى حاسة جديدة لغير الظاهر، تمنح الشاعر قدرةً على صياغة الشكل، ولكن لذاته. بل ليكشف، مثل الزجاجة السحرية، عن الشعر الحقيقي الذي وراءه. الشكل الموسيقي على الورق وسيطٌ مهذَّب للقصيدة وراءه.

كانت هذه الانتباهة دليلي إلى القصيدة العربية منذ القرن الخامس الميلادي حتى اليوم، ودليلي إلى القصيدة الخادعة التي تدهش، ولا يشف الشكل عن أية قصيدة خفية. والمحزن أن الكثير من الشعر الطبيعي اليوم ينتمي إلى هذا الشكل المدهش الذي لا يخفي قصيدة وراءه.

إقامتي الطويلة في الغرب لم تلغ قناعتي القديمة بأن الحضارة عادلة دائماً، وبأن العدالة نسبية. بالرغم من أن تجربتي كعراقي وكعربي أغرقت كياني بمذاق مر، وتركت علاقتي مع الأرض، ومع التاريخ، بالغة الاضطراب والتشوه.

إن انقطاع الجذور عن التربة التي أنتمي إليها، وهو انقطاع يشبه قدر الدراما اليونانية، أورث قصيدتي إحساساً بالفقدان.

المعرفة في إقامتي الغربية، تغذي هذا الفقدان بالأبعاد، حتى أصبح واسع الأفق، عظيم الغنى.

الموسيقي جعلته لحنا وأنا مولع بأدائه.

شاعر عراقي يحمل قيثارة في جزيرة مهجورة.

٢٠/١١/٠١

أبناء الجملة المترجمة

أكاد أحس بأننا، نحن مثقفي الأدب، أبناء جملة مترجمة. حدث ذلك منذ الستينيات. أجيالنا رأت في الثقافة المترجمة إلى العربية كل ما يجدد السجين من نقاهة في هواء الحرية. كثير من الأوكسجين وفي أفق جديد مفتوح. النقاهة، والجدة، والانفتاح، يُفترض أن تكون حصيلة حياة متكافئة، ومتكاملة الفاعلية على أكثر من صعيد، لا حصيلة إطلالة موارِبة من ثقافة أخرى، حتى لو كانت على شاكلة التنوع الذي تتمتع به الثقافة الغربية. ولكن هذا ما حدث فعلاً. وجدنا أنفسنا نستبدل ثقافة بثقافة، ضعيفاً بقوي. أحببنا الرواية، والمسرح، والشعر، والنقد، والدراسة، في حللها الجديدة. أحببنا غناها وجدتها، ولكننا أحببنا غرابتها أيضاً، وخاصة في المفردة، وصياغة الجملة، والسياق الذي بدا غير منطقي. ولم ننتبه إلى علة هذه الغرابة، ولم نتساءل، لأن في الغرابة ذاتها متعة خالصة. ولذلك حسبناها خصيصة عجيبة من خصائص أساليب الإنشاء الغربية، فحافظنا عليها وزدنا عليها قليلاً.

هذه الخصيصة استفحلت مع الأيام، وأصبحت خصيصة لغة حداثتنا، ومع الأيام بدأت أحس بأن هذه الخصيصة هي ثمرة تلك الهُجنة، التي رأيناها في الجملة المترجمة، واحتفينا بها، وتبنيناها.

في آداب الغرب كثيراً ما تتردد نداءات الحاجة إلى الترجمة من آداب الشرق. من أجل نسائم جديدة. أحسب أن صوت الشاعر تيد هيوز كان أبرزها، حتى أسس لمجلة "الشعر المترجم" المعروفة. ولكن الفارق جوهري هنا. فثقافة الغرب (الإنكليزية مثلاً) ثقافة مؤسسة بصورة إسمنتية. ثقافة حضارة العصر الحديث. وإذا ما احتاجت نسائم من الشرق، أو أي منطقة من العالم، فلأنها تعرف قدرتها على استيعابها وامتصاصها. كل شيء يدخل الإنكليزية يأخذ لون ومذاق وطاقة دمها. ومجرد مقارنتها ومقاربتها مع العربية وهم وخداع للنفس. تماماً كالوهم الذي تعامل به بعض الشعراء والنقاد حين قرنوا الأوزان الإنكليزية بالأوزان العربية، وتبنوا في هذه ما اعتبروه ظاهراً في تلك! ولكن، للأسف، هذا ما حدث. مع جملة مفارقات حادة إضافية. فالمترجم لدينا قد لا يحسن اللغة الأخرى، وقد لا يحسن العربية للحد الذي يحقق فيها أسلوبه الخاص. وهو ليس رجل اختصاص في الحقل الذي يترجم فيه، في الفلسفة أو الشعر مثلاً، ويقدمه وفق طلب دور نشر لا علاقة لها بحقول المعرفة، وبمشاعر المسؤولية... إلخ. أضف إلى ذلك عاملاً أكثر خطورة وأكثر خفاءً، هو أن الفارق بين التطور المعرفي الذي تعرضت له اللغتان يكاد يشبه هوة.

تحت وطأة كل هذه العوامل خرجت الجملةُ المترجمةُ لتستحوذ على أساليب الكتابة في حقل الثقافة الأدبية خاصة. واعتدنا على التباسها، وعدم دقتها وفراغها، ودرجناها ضمن خصائص حداثتنا.

٠١/١٢/١

معنى أن ينتصرَ المثقف للدكتاتور!

أكثر من عشرين عاماً على المنفى الجماعي قطعها العراقيون، وأكثر من ثلاثين عاماً على خبرة الأذى والتنكيل تحت سطوة البعث وصدام حسين ذاق مرارتها الناس جميعاً. وفي ثلث القرن هذا عرفت الثقافة العراقية ظاهرةً لم تنفصل كثيراً عن الظاهرة السياسية: هيمنة المعترك العقائدي الدامي، وصعود الدكتاتورية الدموية. في هذه الثقافة معترك عقائدي لا يخفى على عين. تبطّن معظمَ نصوص الإبداع الخيالي والنصوص النظرية. كما أن في هذه الثقافة أكثر من قاعدة، قد تخفى عن العين، لصعود الدكتاتور، وأكثر من ظل له..

وأنا لا أريد أن أوزع ظاهرةَ المعترك العقائدي، والانتصار للدكتاتورية، على كل نص الآن. فهذا الأمر يحتاج إلى تفصيل وإنارة تكشف عن طياته الخفية وراء الظاهر، الذي اعتاد المثقفون وقراؤهم على اعتباره نصاً: تقدمياً، ثورياً، حداثياً، متمرداً.. الخ. ولكن تكفي الإشارة إلى النص الذي بشر بثورة البعث، وتوافق مع مبادئها، أو النص الذي نشأ تحت ظلها، أو الذي استجاب لها، وغنى. ثم النص الذي ارتفعت قامته الإعلامية بارتفاع قامة الدكتاتور، واتسعت رطأته على قلوب الناس باتساع وطأة الدكتاتور عليها. هذا النص في القصيدة،

وفي القصة، والرواية، والمقالة النقدية، والدراسة. وفي نثر الصحافة، وفي الإنجاز الإذاعي، والمسرحي والسينمائي، وفي ثقافة اللوحة والمنحوتة.

تكفي الإشارة إلى هذه الظاهرة، التي شارك فيها عدد كبير من مثقفي العراق، فهي بارزة وما زالت برودتها ملء الكف. وما زال أكثر رجالاتها ينحتون بإزميل اللعنة وجه الموت؛ باسم حب القومية، وحب الوطن، وحب العقيدة، ويعكسون تجريدات عُصابهم العقائدي على النخلِ، ودجلةَ، وبغداد، وكل مفصل من مفاصل جسد هذا البلد المنهك المنتهك.

هذه الظاهرة تحتاج اليوم إلى استدارة مسؤولة تنصرف إليها، لا إلى التفاتة عابرة. استدارة درس وتأمل لكل المثقفين، ولكل ما أنتجوا لأنفسهم وللناس، ولن تكون استدارة ذات نفع إذا ما صدرت من ثقب زاوية نظر ضيق، عن عدسة عقائدية عالية الثقة بالنفس بحجة منفاها أو شرف معارضتها للدكتاتور.

إن فهم هذه الظاهرة المريعة، ظاهرة الثقافة التي انتصرت للدكتاتور، لا يمكن أن يتم إلا بإضاءة جذورها: الانتصار للأفكار ضد الإنسان، أو بغفلة عن الإنسان. وكذلك الاندفاعة الإيديولوجية الخالية من البصيرة، بمعزل عن موضوعة الخير والشر، وبمعزل عن الإنسان أيضاً.

١٥/١٢/٠١.

آخر مظاهر العافية

آخر عهدي بالعلاقة الصحية بين القارئ والكاتب، وبمعنى القراءة، التي تولدها حاجة حقيقية لدى الناس، لمواجهة إشكالات تطورها الطبيعي، كان أيامَ صبا القراءة الأولى مع إصدارات الدكتور علي الوردي، التي كانت ظاهرة من الظواهر.

أذكر أني تعلمت متابعة أخبار صدور كتاب جديد لعلي الوردي من قريب لي، صالح طعمة، الذي يكبرني سناً. كان مدمناً على قراءته بدافع روح الدعابة وحدها. كنت أجلس معه لأنه يطرب إلى إصغائي، وهو يقرأ صفحات من وعاظ السلاطين، ويضحك. وكنت أضحك معه. ولكنني حين كنت أحصل على الكتاب وأنصرف إلى قراءته، ما كنت لأضحك بالطريقة ذاتها. كان افتتاني وليد مؤشرات خليطة: المعرفة حين تكون وليدة حكاية، والحكاية لصيقة ببشرة أحيائنا وحياتنا اليومية. الدعابة الضاحكة حين تكون وليدة متابعة جدية ومسؤولة بشأن الإنسان ومصيره. اللغة التي تتداعى بيسر، وكأنها اللغة المحكية، مدفوعة بالمعاني وحدها، لا بأسر الجمال أو المحسنات. حين تكون من حيث لا تعرف، غاية في الرشاقة والسحر. ولا أنسى أن من مصادر افتتاني أيضاً، كان ورق الكتاب، وغلاف الكتاب، بكل ما فيهما من طواعية، وبساطة، وتواضع. وحتى طريقة رص الملازم إلى بعضها وكبسها.

والأكثر إثارة للافتتان، بالتأكيد، هو هذا التلاحم المدهش بين صدور الكتاب واستجابات الشارع الغزيرة في تنوعها. حتى محلتنا المطمئنة إلى عزلتها، كانت تنشغل بأطروحات علي الوردي في مقهى "ياس" . الصحافة، الراديو، التلفزيون وكل مقهى في بغداد، تدلي برأيها، وكأنها تدليه بشأن موسم الخضرة في الأسواق.

الأحزاب كانت تقول رأيها بأوجه مختلفة، حسب المصلحة. والدولة تأخذ موقف الحياد. والمثقفون، وحدهم، الذين كانوا يقولون رأيهم، لا بدافع عفوية الحياة الذي لدى الناس، ولا بدافع المصلحة الذي لدى الأحزاب، ولا بدافع الحذر الذي لدى الدولة، بل بدافع الكتب التي يقرؤون، موضوعة أو مترجمة، بدافع النظريات الوافدة على الورق. فهو لديهم غير علمي (بمعنى غير ماركسي)، وغير عميق (بمعنى غير متعالٍ)، وركيك الأسلوب (بمعنى غير حداثي)!

هل كان علي الوردي آخر ظاهرة للعلاقة الصحية بين القارئ والكاتب، داخل موجة الثقافة التي لا عافية فيها؟

٠١/١٢/٢٢

أهواءُ المثقف ومخاطرُ الفعل السياسي

١

يبدو أن اليوتوبيا إحدى أهم تطلعات الذهن المفكر، تنشأ مع حركة ونمو الوعي. ما من موهبة فكرية تخلو من ملامح هذا الحلم، في بناء إنسان مُتخيل بخصائص تقارب الكمال، أو تسعى اليه،أو في بناء مدينة فاضلة. ولكن الذهنَ المفكر يعرف ضمناً مدى استحالة تحقيق يوتوبياه على الأرض وإحالتها إلى واقع.

المحزن في تاريخ الأفكار أن هذا الذهن المفكر، الذي يعرف استحالة تحقيق اليوتوبيا، لم يعرف مقدار مخاطرها لو تحقّقت. ولذلك كانت هناك محاولات غامرت لتحقيق بعضها. وفي كل المحاولات كانت اليوتوبيا ـ بتعبير إزايا برلين ـ مخاضةَ دماء، والإنسان أُضحيةً أو قرباناً ذبح على هيكلها.

إلى جانب اليوتوبيا هناك مصادر أخرى في تطلعات الذهن المفكر، قد لا تقل خطورة، تكمن في ذات المفكر. في أتون مشاعره، وغرائزه، وتكوينه النفسي. فليس كل مفكر يسعى عبر نيرڤانا التطهير إلى السلام. هناك من يسعى عبر الفعل إلى تحقيق يوتوبياه. وفي هذا الفعل تجد نوازعه النفسية الداخلية فرصتها في إملاء ما هو شخصي وذاتي

على ما هو موضوعي. إن معنى البحث عن الحقيقة المفترض يغيم تحت وطأة نشوة الرؤى الداخلية. موطن الخطر يكمن في محاولة المثقف إيجاد متنفس لهذه النشوة، عبر الفكر والفعل السياسيين. هنا يخرج من لهيب مشاعره، التي هي مادة خلق خيالي، إلى الفعل السياسي، الذي هو خلق، ولكن يعتمد في مادته المصائرَ البشريةَ المسكينة، لا مصيره الفردي وحده. ولذلك يصرح المثقف ذو العقيدة السياسية دائماً بنقاوة نواياه وأهدافه الإنسانية، وهو تصريح لا شائبة فيه. فهو لم يتحرك إلى الخارج فعلاً إلا بدافع خلق الإنسان والمجتمع الصالح. ولكنه يغفل أن تلك الدوافع معبأة بمشاعر وأحلام ورؤى، لا تختلف كثيراً عن المشاعر والأحلام والرؤى الدينية، التي هي محض شخصية وداخلية، لا تصلح مقاساتها على العلاقات البشرية. العقل المعتَمد، والموضوعية المعتَمَدة، والمقاسات الرياضية الباردة، وتوازن المصالح والقوى، والحذر من الرؤى الغامضة، ومن المشاعر المتدفقة .. إلخ، إنما تتعارض جميعاً مع عملية الإبداع الخيالي، ولكنها لا تتعارض مع الفلسفة مثلاً.

ولكن الفلسفة الغربية الحديثة وجدت، أحياناً، في الذات الشاعرة، قاعدةً ملهمة لها: نيتشة، شوپنهاور، هايدگر، على سبيل المثال. إن تطلعاتهم أيقظت أكثر من حافز لدى الشعراء والفنانين لرؤى مشتركة. شوپنهاور مع حقل الموسيقى خاصة، ونيتشة مع الشعر. ولكن مصاب هايدگر كان كبيراً، لأنه خرج من حقل اليوتوبيا الفلسفية إلى حقل الفعل السياسي، مدفوعاً بمشاعر حارة.

هذه الظاهرة الغربية المريعة تجسدت بصورة متكررة في شخصيات ذات وزن وتأثير في حقل الأفكار: كنوت همسن، سارتر، ولتر بنيامين،

ـتـبـ فوكو، جاك دريدا. . وآخرون. إنهم جميعاً جاؤوا في عصر حداثة
ـ حـ ـموتها، ولا حد لنزعتها الطوباوية، وانتهاكها مثلها ومبادئها
ـي قدمت عليها. فهل كان هؤلاء ضحاياها؟ أم فاعلية مساهمة فيها؟
.. أي حد؟

٢

كتاب العقل الطائش Reckless Mind لبروفسور جامعة شيكاغو
مـ ـك ليللا صدر عن (Nyrb) يشعرض، بذهن غاية في الوضوح، لهذه
ظـ هرة، عبر عدد من أبطالها، الذين ذكرتهم سابقاً، باستثناء سارتر
ـذي جاء ذكره عرضاً. فهؤلاء من أكثر المواهب في حقل الأفكار تأثيراً
ـي الثقافة الغربية اليوم. ولكن فاعليتهم وأفكارهم هذه لم تخل من
مخاطر أيضاً، بسبب تجاوز الخيط المرهف بين رؤاهم الشخصية والفاعلية
ـسياسية.

الكتاب يبدأ بالمحاولة الريادية التي بدأت على يد الشاعر البولندي
ميروش، عام ١٩٥٣، في كتابه "العقل المعتقل". ففيه درسَ اندفاعةَ
ـتعاون، التي أبداها المثقفون في بولندا وفي المعسكر الاشتراكي، باتجاه
تعزيز السلطة الشمولية. ولكن هذا الأمر لم ينفرد به المعسكر
لاشتراكي، بل هو ظاهرة ثقافية في الغرب الديمقراطي، وفي عالمنا
ـثالث أيضاً. كتاب ليللا يحاول دراستها في الغرب عبر كتّاب بعينهم،
وعبر زاوية محددة واحدة يعتبرها مركزية، هي التي أشرت إليها في
الجزء الأول من هذا الحديث.

هايدگر، الفيلسوف الألماني الكبير، اندفع بالجاه النازية وعانق

أفكارها بحماس. ولم يبدِ، حتى آخر حياته، أسفاً أو مشاعر ذنب، وهو يعبر ملايين الجثث، التي قُتلت بأسلحة الأفكار. السبب قد يبدو هيناً بسيطاً في عين أحدنا، هو أن هذا الفيلسوف، شأن كثيرين، لم يُلحق بعالم أفكاره، المتألقة المثالية، معرفةً كافيةً بحياة الناس العامة. حتى أصبحت تلك الأفكار المتألقة غائمة بفعل المشاعر الشخصية الملتهبة، وبفعل الجهل بالكائنات الإنسانية. وأي إضاءة لهذه العتمة لا تتم إلا بترويض هذه المشاعر الجامحة.

مع الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو يبدو الأمر أكثر إثارة. مع أن أمر العاطفة الملتهبة واحد. فهنا نجد روحاً مستقلة تلاحق السعادة كما تفهمها. ونجد هواجسها الفكرية، بفعل استحواذ مشاعر الخطيئة والإثم، تتصاعد في رقصة خطيرة مع الموت. وبين مشاعر الخطيئة والإثم نراها وهي تقوم بانعطافة غير مثمرة وحمقاء باتجاه النشاطات السياسية في زمانها. انعطافة تدفع إلى تساؤلات مهمة بشأن ما يحدث، حين يأخذ أحدُنا مبدأ "خلق الذات الإرادي" لـ "نيتشه" مأخذاً جدياً، ويستخدمه دليلاً لفاعليته السياسية.

هذا خط بياني عام لما حدث لفوكو، الذي حاول الانتحار أكثر من مرة، ودفعته الطبيعة العصابية والانحراف الجنسي الحاد، والانتفاع الشخصي من السوريالية والتجارب الطليعية، لارتياد ما وراء الخبرة البرجوازية المعتادة، عن طريق الشهوانية الجنسية، والجنون، والمخدرات، والسادو-مازوكية، وحتى الانتحار.

في غمرة أحداث آذار ١٩٦٨ الفرنسية شاعت الموجةُ المتطرفة أن ترى بشائرَ مجتمع جديد ذي خصائص لا مركزية، من طبقة عاملة +

طبقة غير عاملة من جنس النساء، والسجناء، والمثليين، والمرضى العقليين. فوكو شارك في هذا الوهم بحماس، طلّق الجامعة واندفع بموجة حماس إعلامي بلاغي مضاد لرجال الفكر. وفي فترة السبعينيات الأوروبية الدامية بلغ حماس فوكو الذروة في الحديث عن السلطة والموت. ساهم في الموجة الماويّة المتطرفة، التي انشقت وقتها إلى حركتي إرهاب إيطالية وألمانية، وتجاوز حتى نداءات زعيم الحركة دمويةً واحتقاراً للقانون.

إن حياة وأفكار فوكو تكشف بوضوح عما يحدث لمفكر بخصوصية فوكو الشخصية، حين يناضل مع شياطينه الداخلية مخموراً بنموذج نيتشه، ويطلقها في عالم السياسة، الذي لا يهتم به بصورة فعلية، ولا يتحمل فيه أية مسؤولية.

٣

الإطالةُ بشأن فوكو في هذا العرض لكتاب ليللا، مدفوعةٌ بمقدار الاهتمام الاستثنائي بنتائج هذا الكاتب في ثقافتنا العربية. وأنا لا أقلل من مقدار أهميته ومكانته. ولم يفعل ليللا ذلك في كتابه، بالتأكيد. ولكن الإشارة إلى هذه الخلفية وراء مواقف فوكو، وإلى خطورة الاندفاع من عالم الشياطين الداخلية المخمورة بنموذج نيتشه، إلى عالم السياسة الذي يخص المصائر البشرية، هي إشارة ضرورية وملحة، فهي تفيد في حقل قراءة النتاج الفكري الغربي وفهمه، والانتفاع منه بصورة صحيحة. ونحن نعرف جميعاً مقدار خطورة هذا الجانب. ولقد حصدنا موتاً كبيراً من تجاهله، على امتداد النصف الثاني من القرن السابق. وما زلنا نحصد موتاً كبيراً حتى اليوم.

ثم إنها تفيدنا في الالتفات إلى ثقافتنا ومثقفينا بالهدف ذاته. فأنا لم أتوقف لحظة عن الشعور بأنهما ساهما، وما زالا، في تعزيز ظاهرة سلطة الرجل الواحد (والعائلة الواحدة) والحزب الواحد، وسلطة الفكر الواحد، وقداسة المعتقد قياساً لرخص الإنسان.

الكتاب الوحيد ربما، الذي صدر في العربية، وصدر عن عربي (على أنه كتب بالإنكليزية في الأصل) ليضع سبابته على هذا الجرح، هو كتاب كنعان مكية: "القسوة والصمت" ، الذي وضع المثقف العربي في قفص اتهام حقيقي، بشأن أكبر مذبحة بشرية حدثت في عالمنا العربي في عصرنا هذا: مذبحة العراقيين، عرباً وأكراداً وأقليات، على يد صدام حسين، وشبح الحزب الحاكم.

المثقف العربي وقف صامتاً. الصمت هنا لا يعني عدم الاحتجاج فقط. بل يعني الرضا، لأن مشهد المذبحة هو من نتاج أفكاره الملتهبة، وقصائده الملتهبة، ونصوصه، على مدى نصف قرن. أفكار العقائدي الذي لم يترك حيزاً للإنسان داخل حقل ألغامها.

الصمت الذي تم حول ما حدث بشأن القتلى، تواصل بإرادة أشرس مع الكتاب أيضاً. فلقد حورب كتاب "القسوة والصمت"، وألقي في ظل النسيان عنوة. حتى مترجمه، الذي كُلف بترجمته لا عن خيار، لم يجرؤ على ذكر اسمه. كل ما أرجوه أن تكون هذه الإشارة في الخاتمة دعوةً لإعادة التأمل فيه، وإحيائه.

٥/١/٢٠٠

عن الثورة التي تأكل أبناءها

نحن جيل فتح عينيه على الدولة تقوم مقام العائلة. في الحقوق التي لها، لا في الواجبات التي عليها. وليس فيها ما في العائلة من أواصر رحم ودفء وحنو. نشأنا تحت ظل الدولة، التي جاءت إلينا معبأة بثقل حتمية سلطتها الشاملة، المعززة محلياً وعالمياً. سلطة الثورة التي لها منّةٌ على كلّ فرد.

كل رجل، وامرأة، وطفل، ونهر، وشجرة، ودابة. كل الفضائل في الكتب، وكل المثل، وقوى الخير وجدناها في خزائنها. وتعرفنا على كل الحيل، والمكائد، وقوى القمع، والشراسة، والموت، كامنة وراء ستار شفيف فيها، مبرأة من الخطيئة، ومبررة، لأنها أسلحة الثورة لحماية نفسها. فعلمتنا الأيامُ العادلة أن نتسامح مع ما نرى، ونعتبره نصف الحقيقة، كي نترك فرصة للإنسان فينا أن يشكو ويحتج قليلاً، باسم نصف الحقيقة الآخر المفتقد..

على أننا كنا نحتفظ في دواخلنا بالنصف المكمل للحقيقة الزائفة، حقيقة تعالي مقام الثورة على الكائنات الإنسانية الزائلة. كانت ثقافتنا الموضوعة والمترجمة تصب جميعاً في تيار الثورة المتعالية على الإنسان. فكنّا، من حيث نريد أو لا نريد ونعرف أو لا نعرف، نكتمل بسلطة الثورة، تكتمل بنا. نملأ ... في ... ها ووسط هوائها الخانق، كيف

نؤاخذ، ونعترض، ونحتج، أو حتى نخطط لانقلاب. وكل ما تعلمناه هو حفنة من وسائلها. لأن طبيعة الثورة قائمة على نزعة المؤاخذة، والاعتراض، والاحتجاج، والانقلاب. فلمَ لا تترك لمخلوقاتها، التي أصبحت من جنسها، الوسائل ذاتها تلهو بها وتنشغل؟! حتى اعتدنا على تكرار المقولة: الثورة تأكل أبناءها دون هلع. لا من أكل الثورة لأبنائها، بل من حقيقة الثورة الكامنة في الأكل!

كنا مثقفين ثوريين. ما من أحد يجرؤ على غير ذلك. ما من أحد يجرؤ على الاحتجاج ضد الثورة. كنا جميعاً، كماكنة محكمة الصنع، نصرخ بأعلى أصواتنا أو أخفضها، ضد الثورة الزائفة، أو ضد خيانة الثورة، أو تحريف الثورة . ولكن ما من أحد يجرؤ على التحديق في الثورة ذاتها، في الفم الذي تتزاحم فيه الأنياب، وهي تقرض لحم الأبناء، كما كنا نردد. كنا نملك خزيناً لا ينفد من الأمثلة على الثورة المرأة من الخيانة والانحراف. في الكتب الموضوعة والكتب المترجمة. (ألم نكن نردد: هل قرأت غرامشي، سارتر، ماركوس...؟). وفي التاريخ الحي (ألم نكن نردد: أطفال المستقبل في موسكو، ورواية القادم من ثورة ماو الثقافية...؟). اليوم صرنا نلتفت بحذر ومخاتلة إلى الخلف. أو لا نلتفت أبداً. وإذ نحذر فإنما من خيانة الثورة أو تحريف الثورة . أما الثورة فمازالت مقدسة ومتعالية في خزانة الكتب، وخزانة الرأس. ومشهد الفم المتزاحم الأنياب، بخيوط الدم واللحم الانساني فمجرد استعارة. وكذا الدم الذي يلوح بين حين وآخر على أطراف أصابعنا، فنخفيها، نحن المثقفين، في الجيوب بحجة البرد.

٢٠٠٢/١/١٩.

عزاء لصديق شاعر

في الليل أخبرني صديق على الهاتف أن زوجة عبد الكريم گاصد الشاعر توفيت، بعد عملية قلب. كنت تحدثت مع گاصد قبل ذلك، عن الخيط الواهن الذي يصل الحياةَ بالموت. المستشفى، وغرفةُ العملية، والمرضُ ليست إلا لاعبي سيرك على هذا الخيط الواهن.

حاولت أن أتصل به على الأثر للتعزية. ولكنني ترددت، لأن كل كلمة ستبدو حصاة. كل جملة صياغة، تحمل معانيها جاهزة على طبق. والشاعر يتأمل بعيداً. وفي ساعة المحنة الكبرى، تبدو الكلمات أشبه بملابس المهرج. ولو تحدثت مع گاصد حينها لأجابني بلهجة العارف: عزيزي فوزي "أرجوك الصمت الصمت"، لأنه يحب الشاعر عبد الصبور، ومولع به. وصلاح لا يأخذه الروع من المحنة، بل يتسع إدراكاً، وحكمتُه حكمةُ خريف يعرف أن الألمَ جوهرٌ في الحياة.

في تلك الليلة، ليلة الموت العراقي، أخرجت مجموعتَيْ گاصد الشعريتين، وقلت أعَزي الشاعر، الذي فقد زوجة عمره، بقراءة شعره الذي أهدانيه قبل سنوات، أسلم طرق العزاء بين شاعرين. في إحدى القصائد استوقفني هذا البيت:

"أرى حجراً شارداً في الظلام"

داخل تيار من الدعابة تتمتع به القصائد. ثم عدد من المراثي في آخر مجموعته "دقات لا يبلغها الضوء"، من بينها قصيدة قصيرة أحسست بيقين أنه كتبها لأم أبنائه:

تقدمي أيتها الحبيبة بكسرة الخبز

فلا وطن لنا ولا بيت،

وقد تجيء الأيام كشحاذين يملؤون الأسواق،

تقدمي أيتها الحبيبة

وباركيني بوردة الشفاء

أم أبنائه غادرت الآن ملتحقة بالرتل الذي غادر: إلى حيث "المنازل بيضاء/ والأشجار كالثعابين/ والنجوم كالنمل/ والتماثيل مطرقة/ كالبشر"، كما ورد في قصيدة "فصل المراثي .."، غادرته بحكمة الخبرة التي أوجزها في مقطوعة ختم بها مجموعته الشعرية تحت عنوان حكمة الخاتمة :

لم أكن أدري

أن ما قطعته ذاهباً

كان طريقَ الإياب

وأن أحلامي ورائي

وأنني لم أكن غير ظلٌ يمشي

لرجل واقف

من الموت نعرف مذاق الخبرة، والشاعر يحتاج مرارة الخبرة، لا حلاوة البراءة. والصديق گاصد يتذكر دون شك أبيات صلاح عبد الصبور، التي تشبه توسلاً:

"يا من يدل خطوتي على طريق الضحكة البريئة
لك السلام
لك السلام
أعطيك ما أعطتني الدنيا من التجريب والمهارة
لقاءَ يومٍ واحدٍ من البكارة"
ولكن هيهات!

٢٦/١/٢٠٠

حسين مردان في ألف باء

في سنوات عمره الأخيرة كان على حسين مردان أن يكتب صفحته الأسبوعية في مجلة ألف باء. ولذا فهو في حيرة من أمره كل أسبوع. حيرة أراها ترتسم على محياه كل مرة يقبل فيها على مكاتب المجلة: ماذا سأكتبُ هذا الأسبوع؟ وأرى العبء يتكاثف في الدقائق، التي يصرفها في البحث عن مكتب فارغ ومعزول للجلوس والانصراف للكتابة. أحيانا أجد العبء مخففاً، حين يختار أبو علي موضوعاً في حلقات كموضوع المقاهي الأدبية، أو موضوع أسفاره . فالفكرة الرئيسية جاهزة على الأقل. ولكن أي مقهى سيختار وأي بلد؟ حين كنت أقول له أن يكتب موضوعه في وقت ملائم قبل يوم التسليم، ينظر إليّ من عليا ، كعادته حين يُستفز: لم تتوهمني خالي البال لأفكر بـ "ألف باء ؟ إنني لا أتذكر هذه المهمة الثقيلة إلا هذا اليوم".

كان يمر على دكان للقرطاسية بعينه، قبل المجيء إلى المجلة، ليشتري دفتراً بعشرة أوراق، وقلما رصاصا. أما الممحاة والمسطرة فكان يحتفظ بهما في حقيبته الصغيرة التي يتأبطها. هذا هو ديدنه في هذا اليوم من كل أسبوع. أما شعائر الكتابة فلا تقل غرابة. كان حريصاً على خلوته، وعلى الاحتفاظ بالباب مغلقاً. يفتح الدفتر المدرسي المخطط على

صفحته الأولى، وعلى امتداد الحافة اليمنى من الصفحة يضع المسطرة ويرسم خطاً عمودياً، فتصبح الصفحة أمامه أكثر نظاما وجاهزية. يأخذ سيگارة من العلبة المفتوحة، لأنه يحتفظ دائماً بعلبتي سگائر واحدة فوق الأخرى، والثانية احتياط. ثم يبدأ بالتحديق عبر النافذة لأفق بغداد، لا كمفكر، بل كإنسان محاصر، أو مورّط. يحك شعيرات رأسه بين حين وآخر. ثم يبدأ يكتب باليمنى، في حين تمسك أصابع اليسرى بالممحاة. وإذا أراد أن يمسح ما لا يريد يمسحه بأناة، لأنه يحب أن يتحول، بكل جسده الممتلئ، إلى تلميذ مدرسة صغير. وإذا ما توقف، وأسرف في العبث بشعيرات رأسه، فهذا يعني أن تدفق الكلمات لم يعد كما كان، وأن الكتابة ليست إلا عبثاً. حينها يقف أبو علي متثاقلاً ويفتح الباب ويخرج باتجاهي قائلاً، قبل ان أسأله: "يبس!" وهو يشير إلى جبينه. ثم يشتم المكافأة التافهة.

٢/٢/٢٠٠.

الذُرى التي تسكنها الطيور والدموع

كان حسين مردان يحب سيدة لطيفة المعشر في وزارة الثقافة والإعلام ببغداد، في سنوات السبعينيات الأولى. يحبها على عادته، من طرف واحد. وأحسب أن السيدة تعرف ذلك، وتحرص من جانبها على رعاية هذا الحب العذب الوديع، الذي لا ينطوي على مخاطر بني آدم. فحسين مردان دائم الحب للمرأة، يرفعها من ترهات الحياة اليومية إلى الأثير، ثم إلى عالم أحلام لا يحسن فهمه إلا الصفار. هذا ما ينطوي عليه رأسه، أما وجدانه الذي يملي عليه الشعر فلا يميل إلا إلى امرأة لا يعرفها، امرأة أرضية تنتسب إلى المدينة ومكتنزة بالحسيات: رائحةُ عطرها، ربلةُ ساقها، عرقُ مفارق أعضائها.

هذه أكثر من مفارقة في شاعر لم يكف عن طبيعة المشرد النبيل فيه، حتى يوم موته. كان في كل عودة من سفر يحرص على زجاجة الويسكي وصندوق الروثمان يحملهما من السوق الحرة هدية إلى السيدة التي يحب. وحين أطمع، أنا صاحبه المفلس، بواحدة من الهديتين، يجيب بضحكة كنت ألمس خشونة المرارة فيها بالأصابع: "عزيزي فوزي، أنت وقصائدك ما تعادل لحظة من ضوء ابتسامتها في عنبار روحي المظلم".

في تلك الأيام كتبت قصيدتي "حسين مردان". وفي واحدة من

جلسات ظهيرة گاردينيا قرأت عليه القصيدة في مسوداتها الأولى. فأبدى إعجاباً، وحاول، تحت مراقبتي الفاحصة، إخفاء طربه وأبهة مشاعره بذُراه البعيدة. الذرى التي تسكنها الطيور والدموع. إلا أنني في واحدة من التنقيحات حذفت مقطعاً صغيراً، وجدته على شيء من الميوعة:

نحن نعرفُ معنى الزيارة

لرواقِ الوزارة،

ونعرفُ معنى الهوى المستحيلْ !

في أمسية لي في حدائق اتحاد الأدباء، اكتفيت بقراءة "حسين مردان" وحدها. وكان الشاعر يتصدر الجالسين.أرقبه بين حين وآخر، وأشعر أني أرقب طفلاً لا يتأمل ما أقرأ، بل يترقب بنفاد صبر بلوغ ذلك المقطع، الذي سمعه في گاردينيا، والذي حذفته بسبب ميوعة غنائيته.

ومنذ تلك الأمسية وحسين مردان لا يكف عن تكرار مأخذه القاطع على جيلنا الستيني: "الغنائية روح الشعر. تأكد، يا أبو لحية، أن شعركم جميعاً لا يساوي قرشاً بغير هذه الغنائية، التي تعاليت عليها بدون حق!"

الجملة الأخيرة كانت تمر من بين أسنانه.

٢٠٠٢/٢/٩

صخرته (حاملة المصباح في الظلام)

على حافة العالم المتجمد تأبى الخيول

ذهاباً، وتنكفئ الأشرعة

ويخطو المسافرُ ظلاً وحيداً، وتخطو معه

على الثلج ريحٌ قديمة

هذا هاجس كوني لقدر الإنسان. وهو هاجس يميز الشعلة الخالدة في شعر محمود البريكان. إن زوال الكائن الإنساني، كائن العزلة المطلقة، يليق بمشهد حافة العالم المتجمد، حيث ترتعد فرائص الخيول فلا تقتحم، وحيث أشرعة الرحيل تنهار.

ولكن ما أروع البريكان في تصور بطله الإنسان، المؤهل وحده لمعانقة مصيره، وهو يخطو على حافة العالم المتجمد، ولا يصحبه إلا عويل الريح القديمة!

على حافة عالم متجمد كهذا، وفي دوامة عويل ريح باردة كهذه، وصلني مشهد مقتل الشاعر، الذي طالما وجدتني لصيقاً بشعره، تياها بشاعر الانتساب إلى تياره، خالص الشعرية، وحريصاً مثله على معانقة الإنسان، في أنبل تسامياته التراجيدية، وعلى الحذر من قداسة الأفكار والمبادئ.

لم يكن حرصه على الإنسان سهلاً، منقاداً بسطحية إلى ما توفر في سوق العقائد النظرية. علمته حكمة العزلة أن يبقى "حجراً، تنبو الحوادث عنه، وهو ملموم"، لا أمام "أغراض الشعر" العربي الحديثة، ولا أمام دعاوى شعراء الالتزام، الساكنين معاقل الأناشيد اللفظية، المتعالية على الإنسان فقط، بل أمام حتى المعجبين به، الراطنين بلغة يعرف مقدار خلوها من الدلالة. لأنه، شأن كل شاعر كبير، يعتبر "الكلمة الخالية من المعنى خيانة".

وصلني خبر رحيل البريكان مقتولاً بطعنات سكين، داخل بيته، (دون يقين بيد من؟) وكأني أرقب تلك الخطوة على حافة العالم. فالشيخ تجاوز السبعين، وقد بلغت رغبته بالعزلة المعهودة، والانصراف إلى النفس مبتغاها. فهو لم ينشر شيئاً من شعره عن طواعية ورغبة، ولم يقبل على الاحتفاء به بنشاط المتفع. ولم يكرس له موقعاً شعرياً في مقدمة صفوف قطافي ثمار عقائد اليسار واليمين، ولم يقل أو يكتب كلمة نابية في بهو عالمه عن إضاءة وعيه، وإضاءة ضميره المسؤول.

انتُزع البريكان من ليل العراق بالعنف والغصب. ما كان يليق بصخرته (حاملة المصباح في الظلام) ولا (بحارس فناره) أن يظلا تحت سطوة ليل كليل البعث، ولا تحت رعاية سودا، كرعاية صدام وعدي وقصي.

جاءه رسولُ الغيب ـ كما توقع ـ ولكن بعنف ينسجم وعنف المرحلة. ولكن هل يغير هذا من قدر الكائن:

رسول من الغيب يحملُ لي دعوةً غامضة

ومهراً لأجل الرحيل

٢/٣/٩٠٠٢.

حول حب الوطن لا المواطن

ما زلت أذكر قصة (القارب) التي طلعت بها علينا بثينة الناصري في أواخر الستينيات. كنت أرقب ابتسامتها الشاردة، وهي طالبة لغة انكليزية في كلية الآداب. كنت أدرس العربية بدافع الكمل سنوات أربع، هن أكثر سنوات حياتي الثقافية فقراً. في قصة بثينة (واقعية) صادمة وغنية، تعلمتها من الإنسان المحبط بها، ومن الحياة، لا من كتب الأدب وكتب الأفكار. لم يكن فيها أثر من الواقعية المبتذلة الشائعة آنذاك باسم الالتزام، والتي تتعامل مع المخلوقات كما يجب أن تكون. أبطالها كما هم على الأرض، ووعي الكاتبة وثقافتها تكتفي بإزالة القشرة عنهم، قشرة الظاهر، لتكشف عن الجوهر.

حين أصدرت مجموعتها الأولى كتبت عنها مراجعة متحمسة، ولم ينطفئ الحماس مع المجموعة الثانية. ولكن بعدها انقطعت بيني وبين قصصها السبل. كما انقطعت السبل بين العراقيين. ثم عرفت أنها استقرت في مصر، بعد تجارب لم تكن تخلو من منغصات ومرارات. وعرفت أنها عملت في السفارة العراقية، ولم أجد بأساً حتى في ذلك. فقد يجد المقرور ملاذاً في حضن الشيطان. وحين التقيتها في القاهرة قبل سنوات عدة منحني حديثها الرائق أكثر من سبيل للاطمئنان. كانت

تتحدث عن حماساتها العراقية. ومن منا يخلو من حماساته العراقية!
إلا أنني هجست شيئاً وضعته موضع الدرس في داخلي. وأنا بشأن هذا الهاجس كثير الوسواس، لا أنكر ذلك. فقد كررت بثينة أمامي مشاعر حب للعراق وللوطن، ومشاعر خوف على العراق وعلى الوطن. وأنا أعيد عليها جملتها بتحريف مقصود فأقول لها: حب الناس العراقيين والمواطنين العراقيين. والخوف على العراقيين وعلى مواطني العراق.

كنت أحب أن أعيد لبثينة علاقتها ببطلتها في قصة (القارب). أعيدها للإنسان الذي هجرته باتجاه فكرة الوطنية، وحب الوطن. وهذه الهجرة من الإنسان كقيمة عليا إلى الفكرة المجردة كقيمة عليا، طويلاً ما كانت قاعدة ثقافتنا على امتداد نصف قرن. أكثر شعرنا فيها اعتاد على التغني بتجريدات: الوطن، والجماهير، والحرية، والثورة، والرموز الذهنية المتعالية. في حين كرس للإنسان العراقي، وللكائن البشري فيه كل طاقته الهجائية. وكثيراً ما انتفعت هذه العقائد حين تحولت إلى سلطة من ذلك، فجعلت الوطن والثورة.. أسلحة للفتك بالمواطن، ووسائل طعن وتخوين.

هذا ما أغوى قاصة جيدة كبثينة الناصري في السنوات الأخيرة، معتمدة على موروث ثقيل في ثقافتنا، فيمر لها العمل في السفارة باسم حب الوطن، وإصدار كتاب عن (الحب في الشعر العراقي) باسم حب العراق، ثم على المثابرة من أجل توفير ركن لجناح عراقي في معرض الكتاب في القاهرة، باسم حب العراق بالتأكيد، ثم إنشاء دار نشر عراقية تحت الراية ذاتها ، ثم تتويج الحب بإصدار رواية بقلم صدام حسين (هذا ما قرأته في هذه الصحيفة مؤخراً!)

إن التحديق المشرق المحب بنجمة (الوطن) ينطوي على ضرب من المخاتلة، لا أعتقد أن كاتبة (القارب) تجهله تماماً.

فالتحديق بنجمة (الوطن) يعني غض الطرف عن المواطن، عن العراقي الذي يذبح بسلاح الوطن منذ ربع قرن. تماماً كما ذُبحت بطلتها داخل القارب من قبل الرجل، دفاعاً عن الشرف.

هل نسيت بثينة (الذبيحة) في قاربها، أم تناستها لصالح حب (الشرف) الذي يحمل سكيناً؟

٢٠٠٢/٣/١٦.

حفنة تساؤلات عما يتخفى وراء المرآة

قرأت عشر ترجمات لملحمة گلگامش إلى اللغة الانكليزية، أكثرها صياغات شعرية تكشف عن وجهة نظر، لكل شاعر على حدة، في قراءة وتفسير هذا النص الشعري الخالد. من جهدنا، نحن العراقيين، لم اقرأ إلا ترجمة طه باقر. ما من ترجمة منافسة، ولا صياغة شعرية تكشف عن اجتهاد من موهبة شعرية فردية، باستثناء بضعة استلهامات خاطفة وعابرة هنا وهناك.

في الاستعادة الموسيقية يبدو الأمر أكثر إحراجاً. إذ إن موضوع علاقة الشعر بالموسيقى تكاد تكون مستعصية بسبب سوء الفهم. فنحن لا نملك، أصلاً، حقلاً واضح المعالم للموسيقى الكلاسيكية (الجدية) القادرة على التعامل مع النصوص الشعرية الجدية. إن موسيقانا الفولكلورية طاغية الاتساع، وهي متعافية حتى العقود الأخيرة. قبل أن تطغى عليها وتأخذ الزمام من يدها موسيقى التهريج. هذه الأخيرة ذات أوجه عدة، إحداها تلك التي تحاول ادعاء الجدية (الكلاسيكية) عن طريق الاستعانة بالشعر الجدي. وكأن النص الشعري كفيل بجعل الموسيقى - أية موسيقى - ذات مستوى رفيع. حدث هذا مع قصائد شعراء محدثين، وقدامى من المتصوفة، وحدث مع نص گلگامش أيضاً !

هذا أسى لا حل له، أعادني اليه إصغائي لعمل موسيقي وضعه التشيكي بوبوسلاف مارتينو (١٨٩٠-١٩٥٩) لهذه القصيدة العراقية الخالدة. وضعه على هيئة (كانتاتا) أو (أوراتوريو) (وهما فنان من الفنون الدرامية للأصوات البشرية)، وقد أصدرت توزيعاً مؤخراً له دار Naxos، قامت بها الأوركسترا السلوفاكية تحت قيادة كوسلر.

وقبل أن أعرض للملحمة في صيغتها الموسيقية سأحاول التعريف، في إيجاز بالموسيقي (مارتينو). بدأ نشاطه الموسيقي منذ سن السادسة على آلة الفايولين، ثم بدأ التأليف وهو في العاشرة من عمره. درس في براغ، ثم غادرها إلى باريس لمواصلة الدراسة عام ١٩٢٣، ولكنه استقر فيها حتى عام ١٩٤٦، وغادرها، لا للعودة إلى بلده، بل لمنفى اختياري أبعد مدى، هو أمريكا. وحين اختار العودة عاد إلى فرنسا ثم سويسرا، لا إلى تشيكوسلوفاكيا، وكتب عليه أن يموت هناك بعيداً عن البلد الذي ينتمي اليه، وتنتمي اليه موسيقاه جميعاً. إن مارتينو، الذي امتص رحيق التيارات الطليعية الغربية في الموسيقى، خاصة الانطباعية الفرنسية، وموسيقى الجاز، واجتهادات سترافنسكي الإيقاعية، ظل في موسيقاه وفياً للروح الموسيقية التشيكية لا يغادره، بالرغم من أنه، خلافاً لموسيقيين من أمثال سمبتنا وياناتشيك، لم يكشف عن الروح الوطنية المحلية في موسيقاه بصورة مباشرة، بل أخفاها تحت ظل طابع جديد للألحان تصبغه التساؤلات والحيرات والأحلام.

عاش طفولته في غرفة صغيرة، في قمة برج لكنيسة قديمة، كان يعمل فيها والده راعياً وحارساً، ومن هناك تعلم كيف يتأمل، وكيف يقنص في موسيقاه الإحساس بالمكان وبالأشكال المجردة التي تحيطه.

في الثلاثينيات، وفي سنوات إقامته في باريس، وضع أول أوبرا له بعنوان "جولبتا"، وهي فانتازيا شعرية رائعة تتشكل في هيئة حلم، ومبنية بنا، سورياليا، يتقصى فيها مارتينو عالم المخيلة اللاعقلاني في الأربعينيات، حيث كان يقيم في الولايات المتحدة الأمريكية، استدار إلى التأليف السمفوني وهناك تعرض لحادث كاد يودي بحياته حيث سقط من شرفة لم تكن متماسكة أفقدته السمع في أذنه اليسرى، والقدرة على المشي لفترة طويلة.

في الستينيات من عمره بدأت تتنازعه التساؤلات الأكثر عمقاً حول الوجود الإنساني ومصيره. فوضع أعمالا أوبرالية وكورالية وأوركسترالية، مستوحاة من أعمال كتاب من أمثال تولستوي، وسانت أكزوبري، ونيكوس كازانتزاكيس. ولكن (ملحمة گلگامش)، أروع أعماله الكورالية جميعاً، كانت ثمرة هذه التساؤلات وهذه الحيرات: فالفنان يبحث أبدا عن معنى للحياة، معنى لحياته ولحياة كل كائن، ويبحث عن الحقيقة. وهذه التساؤلات جعلته يؤمن بأن التعبير الموسيقي الجديد يجب أن يطلع من أعماق الموضوع أو المضمون، وأن يكون نتاج شخصية المؤلف وخبراته. في هذه المرحلة النهائية من الخبرة وضع (مارتينو) عمله الجليل ملحمة گلگامش، عن ترجمة إنگليزية للنص شبه تقليدية كان قد قدمها ريجينالد كامبل تومبسون عام ١٩٢٨. ولكنه، بفعل تقليديتها، حاول إعادة صياغتها وتكثيفها محتفظاً بما هو أساسي وجوهري، خاصة في ما يتصل بتطلع البطل التراجيدي (گلگامش) إلى المعرفة، والصداقة ومواجهة الموت، هذه الأركان الثلاثة للملحمة الخالدة عالجها مارتينو محققاً التأثير النفسي والدرامي عبر الصور (النموذجية الأولى) التي تتسع دلالاتها لتشمل كل كائن بشري.

صحيح أن گلگامش كان ملكاً، ولكنه، بالنسبة لمارتينو كان كل واحد منا، دون حدود للزمان والمكان. تبدأ ملحمة گلگامش بمفتتح Pre-lude قصير يعكس امتداداً سرابياً، وصحرا ، محترقة بالشمس، ثم فجأة تنبعث أصوات نسائية تشبه الحسرات، لتنقلنا إلى مشهد مدينة (أوروك) المحصنة، حيث يحكم گلگامش دون منازع.

گلگامش

من اخترق ببصيرته جوهر الأشيا ء،

دعه يهدي البلاد إلى المعرفة،

المبجل لحكمته،

دعه يأخذ بيد مواطنيه.. .

ولكن گلگامش لا يعرف حدوداً. فتمنح أورو حياة لأنكيدو، المتوحش النبيل، ليقف في وجهه، ويوفر موازنة تحقق عدالة بين الناس. وهنا نسمع عملاً أوركسترالياً يعكس كل ما تنطوي عليه شخصية أنكيدو من برا ءة وطبيعية:

إنه لم يتعرف على إنسان أو وطن،

في البراري يعرف مرعى الغزلان وحدها

...

وإذ تقع عين أحد الصيادين على أنكيدو المدهش يبعث اليه بغانية لكي تطوعه، وهنا يستعير مارتينو لحناً شهيراً من أوبراه الحلمية "جوليتا" ليصور به إغوا ء الغانية بالجسد والشراب لهذا الكائن نصف الحيواني، حتى تطوعه وتعيده إلى جنسه البشري، فيهرب منه الحيوان، ومن بعد تقوده إلى مدينة أوروك حيث تجري مواجهته لگلگامش المتفرد.

ينتهي القسم الأول من ملحمة گلگامش بدخول أنكيدو مدينة أوروك.

يبدأ القسم الثاني "موت أنكيدو" بمفتتح تنفرد فيه آلة الفيولا بلحن حدادي، ويذكر الكورس گلگامش بأن:

الموت في انتظار الجميع

والرب وحده الباقي

أيام الكائن معدودة،

والموت في انتظار الجميع.. .

بعد صراع أنكيدو وگلگامش، تنفس الناس الصعداء، ولكن موسيقى مارتينو لم تلتفت لذلك، بل انصرفت لموت أنكيدو بعد أن زاره طيف الموت المريع:

خيل لي في منتصف الليل أن السماء أرعدت وارتجفت الأرض..

وحدي كنت، حين أطل علي فجأة رجل

معتم الوجه كغيمة عاصفة

وأمسك بي بمخالب أسد..

وقادني في الظلمة حيث طريق اللاعودة.. .

ويموت أنكيدو وتبدأ العاصفة في قلب گلگامش مدفوعاً بحب صديق غادر إلى الأبد، وخوف من موت لا مناص منه.

القسم الثالث ابتهال يبدأ بلحن على آلتي القيثارة و الناي ليعيد إلى الوجدان مناخا شرقياً قديماً. عبره نرى گلگامش منهكاً، بعد عودته من تجواله في البحث العابث عن سر الخلود:

لمَ وجهك غائر هكذا، وروحك معجونة بالهموم ؟

ويدفعه اليأس إلى الاعتراف بالحقيقة، فلم يبق لديه الا حنين لاستحضار روح صديقه الغائب. وبعد توسلات تبعث اليه روح أنكيدو كالريح من جوف الأرض، فيعتنقان، وهنا يتجنب مارتينو أية لمحة من العواطف المائعة، ففي النص الأصلي للملحمة، ترسم روح أنكيدو صورة معتمة قاسية للعالم السفلي، في حين حاول مارتينو أن يؤكد أن ما من إجابة ممكنة، ولم يضع على لسان أنكيدو إلا جملة (قد رأيت) تتكرر على لسانه. في سنواته الأخيرة، استغرقت مارتينو التساؤلات الغائمة حول (الموت) وما يليه، حتى أنه في ساعاته الأخيرة كان يردد كمن يسمع صيغةً هامسة للسؤال الكلكامشي المحير: كم تشدني الرغبة أن أعرف ما الذي وراء المرآة ؟

٦/٤/٢٠٠٠

"الاغتراب الأدبي": مجلة احتضان وتبشير

الكتابة تصبح أهلاً ووطناً لمن يفقد أهله ووطنه. هل يصح ذلك على المنفي العراقي، الذي بدأت له جذورٌ تنبت على الارض الغريبة؟

العلاقة الإنسانية مع الأهل والوطن علاقة شخصية وفردية، تماماً مثل العلاقة مع الكلمات، والكتابة. ولذلك تبدو تلك المقولة صالحة تماماً على المبدع العراقي في منفاه، ونحن نتأمل نشاطه الاستثنائي بصيغته الشخصية، الفردية البارزة والمتميزة.

من بين الكتابة الفائضة في الصحف، والمجلات، والدوريات، والكتب، نأخذ نشاط إصدار المجلات التي لا تفلت من تلك المسحة الشخصية والفردية. فالعراقي لا يخفى على عين، في القارات الخمس جميعاً، والمنفي العراقي يحسب حساب القارات!

ومن بين حشد الإصدارات الدورية، المتقطعة الأنفاس معظم الأحيان، أحب أن ألفت النظر إلى واحدة مدهشة في تواصل النفس والمثابرة، دؤوبة في حفر مجرى لمهمتها التي بدأت متواضعة، ودؤوبة في الحفاظ على هذا التواضع، الذي أصبح خصيصة شخصية وفردية لها.

بدأت مجلة الاغتراب الأدبي منذ سبعة عشر عاماً، مع منتصف الثمانينات التي أصبحت تهيىء قاعدتها التاريخية للهجرات الشاملة

وللمنفى الكبير. كانت المجلة احتضاناً لفكرة المنفي العراقي، وحين فوجئت بسيول المنفيين بدأت تميل - عن إرادة أو غير إرادة - إلى التخصص. فبدأت تحيط جيلاً بعينه بالرعاية. جيل الحربين العراقيتين الكبيرتين ، جيل الاستلاب الكلي. ولعل الدأب والتواضع هو الذي أملى هذا التخصص، لأن المجلة، على امتداد السنوات، استجابت لإرادة بريد كتابها في تكوين هويتها وتحديد مهمتها. والشاعر صلاح نيازي، مع القاصة سميرة المانع، يرقب ويتأمل ثم يضع الخطوط العامة.

هذه المجلة احتضانية، ولكنها تبشيرية أيضاً. فهي لا تكتفي بالرعاية، بل تمسك بيد الآخر بحرارة المؤمن بما يفعل. ويد المنفي الشاب مليئة بالوعد. ويكفي أن تطلع على ملف العددين الأخيرين حول الترجمة المعاشة لتحس بمدى اعتزاز المجلة بالعراقي، الذي بدأ يحسن أكثر من لغة ، ويترجم عنها ببراعة: الإسبانية - الفرنسية - اليونانية - التركية - النرويجية - الإيرانية - الألمانية - السويدية - البولونية - الإنكليزية - الدنماركية..

(٠٢/٤/٢٧)

عن رائحة الأمل في العودة

في الهواء الذي يتنفسه العراقيون في منافيهم شيء من رائحة الأمل في العودة. وكأنهم يعيشون على مشارف مرحلة امتدت عقداً، أو عقدين، أو ثلاثة عقود من الزمان. يتطلعون إلى سياسيي المعارضة الغارقين في خضم خلافاتهم العقائدية ويعجبون. كيف يتسنى لكيان ذاوٍ بفعل جفاف الغربة أن يختلف بشأن أفكار وإيمانات، هي بحكم فرديتها، مجرد اجتهادات فرضها كتاب من الكتب، أو قدر من الموروث، أو قناعة شخصية عرضةً للتأثير والزوال أيضاً؟

العراقيون المنفيون، العراة بلا دليل، يعجبون، وهم يحدقون بوجوه السياسيين والمثقفين، فيرونهم يرطنون بلغات تخرج من رؤوسهم، لا تمس حاجات أرواحهم وأجسادهم. لا يرونهم آباءً وأمهات، أو أبناءً وبنات لأمهات وآباء، بل كياناتٍ مقطوعةً مجردة، تخرج من أفكار العقائد إلى هواء الوهم المطلق. يعنيها الطريق السليم، أو الطريق الحق، أو الطريق الوحيد. ولا يعنيها إذا ما كان هذا الطريق، طريق الوهم، قد سفك على جادته، من قبل، دم مئات الآلاف من القتلى.

العراقيون المنفيون، داخل التاريخ، يعجبون من حرية السياسيين والمثقفين، خارج التاريخ، في توليد مزيد من اجتهادات الخلاف بشأن

أوضح السبل العقائدية لإزالة الدكتاتور وسلطته العائلية. وكأنهم يرون وطناً واحداً، وشعباً متماسكاً، وجيشاً قوياً، وأحزاباً تحزم خلافاتها أواصر الديمقراطية. ولا يرون واقع وطن ممزق أشلاء، وشعب أصبح طوائف، بين لائذ من الخوف بالمجهول، ومُهجّر مطعون بكرامته، ومنفي لا أمل له بالعودة، وجيش منذور للمهالك العابثة، ولا حول له تحت قبضة الحرس الجمهوري، والقوات الخاصة، وفدائيي صدام، والاستخبارات، وأحزاب لا تقاتل من أجل الناس بل من أجل العقيدة.

العراقيون المنفيون يعجبون لِمَ لا يتعامل السياسي والمثقف مع مصير الوطن والناس بالواقعية والحرص ذاتهما، اللذين يتعامل فيهما مع مصير عائلته وأبنائه ومصالحه الخاصة. لِمَ يكون أرضياً مع هذه وعقائدياً طوباوياً مع تلك. ولِمَ ينسى الحماس العقائدي الذي سبق أن قاد آلاف الضحايا إلى الموت المجان، ولا يتساهل مع أي خطأ ارتكبه بشأن أبسط مصالحه العائلية والشخصية، حتى لو قادت إلى مرض غير معضل، أو خسارة في تجارة!

العراقيون العراة بلا دليل يتنفسون مع هواء المنفى شيئاً من رائحة الأمل في العودة، يُقبل من أفق خالٍ من النظريات والأناشيد.

٢٠٠٠/٥/٤

لون للمهانة غير الأسود

المهرجانات الثقافية في العالم العربي هي أبرز نشاطات ثقافة الإعلام الجديدة، التي ولدت من رحم النظام العربي الواحد. النظام الذي أتقن مهمة تأميم الثقافة وامتلاكها مستهدياً بتوجهات الإيديولوجيات اليسارية الثورية. الثقافة العربية اليوم تنتسب لهذا الإعلام البالغ الحيوية والثراء، وأفكارها بكل شيوع الروح الثوري والتمردي والخارجي، ما هي إلا بنات أفكار هذا الإعلام، وطنها على ممارسة ثوريتها وتمردها وخروجها تحت رعايته، دون أن يترك لها فرصة الشعور بالمفارقة. أليس هو وليد الثورة وأفكارها، أو وليد المصالحة مع هذه الثورة!

في هذه الورقة لم يكن شاغلي ثقافة الاعلام في العالم العربي حقاً، بل المهرجانات الثقافية العربية في العالم الغربي. فنحن نسمع بين حين وحين عن أنشطة ثقافية في أكثر من مدينة غربية، تعنى بتقديم ثقافتنا العربية، ونصوصنا الأدبية، ونجوم هذه الثقافة والنصوص إلى المحافل واللغات الغربية. وهي موجة صحبت موجة الهجرات الكبرى للمثقفين العرب إلى المنافي الكريمة.

والمتأمل يعجب من مقدار الشبه بين طبيعة وتوجه مهرجانات المنافي هذه والمهرجانات العربية الرسمية، مع أن التاريخ يفترض تناقضاً حاسماً بينهما. ولكن التاريخ قابل للتزوير كما نعرف!

وجوه الشبه الظاهرة لا تخفى على عين. أبرزها أن الشاغل الإعلامي في كليهما واحد. فمهرجانات المنفى، المعززة مالياً من المؤسسات الغربية المحلية، والمهرجانات العربية الرسمية يشغلهما استضافة النجوم أولاً، ثم استضافة من يعمل في وسائل الإعلام: صحافة، إذاعة، تلفزيون، دار نشر... ، والإثنان لا تستقيم مصلحة أحدهما دون الآخر. النجم يحتاج إضاءة وسائل الإعلام. ورجال ونساء وسائل الإعلام، وهم شعراء المرحلة، يعرفون كيف يرضون النجم والمهرجان معاً، من أجل تعبيد الطريق لهم من أجل مزيد من الشهرة. الفائدة مشتركة بين النجم والمهرجان ووسائل الإعلام.

التخريب المريع الناتج عن هذه الصفقة داخل عالمنا العربي ألفناه عبر العقود الأربعة الأخيرة، حتى اعتبرناه قدرا أسود شأن قدر الأنظمة الأسود.

ولكن أن نجد التخريب ذاته والصفقة ذاتها في تقديم الوجه الزائف لثقافتنا ونصوصنا وشخوصنا، إلى الإنسان واللغة الغربيين، لأمر يستدعي لوناً آخر لقدرنا غير اللون الأسود.

هل للمهانة لون فأقترحه؟

(١١/٥/٠٢)

البحث عن لمسة القداسة

يقال إن الفرزدق سمع في المربد قصيدةً أعجبته فسجد، وحين سُئل قال: لكم سجدة القرآن ولي سجدة الشعر. وحين زار أبو نؤاس حلب سمع ديك الجن بخبره فقصده من حمص حتى لقيه وأنس تحت ظله. ولعل شواهد كهذه حدثت مع أبي العلاء.

في هذه الشواهد لمسة قداسة تحيط كيان المبدع المعلم. تماماً كما تحيط القداسة فكرة الحج. فالإنسان، كلما اتسعت معرفته كلما اتسع جوعه إلى لقاء الكيان الذي تتجسد فيه المعرفة. إلى المعلم. وكأنه يسعى من المعرفة المجردة إلى المعرفة المجسدة في الكيان الإنساني، الذي هو أسمى الكيانات.

قد تتضاعف الشواهد في الحقل الفلسفي والتصوفي في موروثنا، بقدر ما تتضاءل في حقل الموروث الأدبي والشعري.

في الغرب نسمع عن حج الموسيقي باخ الذي قطع ٢٠٠ ميل مشياً لسماع عازف الأورگن بوكستيهيوده، ونقرأ مقالة الشاب ڤاگنر الشهيرة "الحج إلى بيتهوڤن"، ونقرأ مقالة الشاعر أوكتافيو باث عن حجه للقاء الشاعر الأمريكي الشيخ روبرت فروست، وحديث الشاعر ريلكه في زيارته الشاقة لرؤية تولستوي. كلها صبواتٌ داخل عالم الشعر، الذي لا

يقل سمواً عن الفلسفة والتصوف، صوات تتزاحم في تاريخ الأدب الغربي والعالمي، تحيط بالهالة الرؤوس حين تشيب وتثقلها الحكمة. وعادة ما تقترن هذه الشيخوخة، لدى المعلمين الكبار، بالعزلة والزهد بالجاه والشهرة.

المؤسف أن لمسة القداسة هذه تكاد تكون نادرة، إن لم تكن معدومة، في حياتنا الفكرية والأدبية والشعرية بصورة خاصة.

فالأجيال الشابة لدينا تتطلع إلى أفق طموحها دون معلمين. قد يتوفر رواد ولكن دون لمسة قداسة يحُج إليها كما يُحج إلى أبي نؤاس وأبي العلاء وبيتهوفن وتولستوي.

إن هالة النجم، ذات الإضاءة المصنوعة هي وحدها التي تحتل مكان هالة المعلم. وهالة النجم، كما نعرف، تكوين نشأ من كل دناءة أرضية توفرها الأنانية، والتعلق بالشهرة والمصلحة الشخصية والجاه الاجتماعي، وهي عناصر تتعارض مع الإنسان في أرفع مراحل تساميه حين يصبح شاعراً.

ما أبأس الشاعر النجم الذي لا يُحج إليه إلا بدافع الفضول!

(٠٢/٥/١٨)

خرائب أعمدة الموقف النقدي

كانت كلمات (التمرد) و (التجاوز) و (الثورة) أعمدة الموقف النقدي في الستينيات، ومنذ الستينيات أصبحت معيار النص الحديث؛ بحيث صار أحدنا ينبش في نصه خشية الوقوع على بقايا شوائب تحول بين البصيرة ورؤية تمردنا وتجاوزنا وثورتنا واضحة المثول والإنصات. فهذه لحمة حداثتنا وسداها، مع أننا كنا نقرأ في الكتب المترجمة ما يوحي بأن الحداثة اعتمدت عنصر اللايقين الفلسفي، والارتياب من الدوافع الغامضة الدفينة التي كشف عنها علم النفس، والخروج في الجماليات من الأناقة إلى التشويه، ومن الانسجام إلى النشاز، كنا نقرأ شيئاً من هذا ونفهمه على هوانا، أو نفهمه على هوى التمرد، والتجاوز، والثورة. لأننا لو حدقنا إلى معنى (اللايقين) لوجدناه ينسحب على القناعة بالتمرد، والتجاوز، والثورة نفسها. في حين كنا نحرص على هذه حرص المؤمن، بفعل دوافع لا مجال هنا لتحليلها! فماذا فعلنا؟ الحل في أن نقدس اللامقدس ونجعل اللايقين عقيدة. وبهذا نحل مشكلة تعلقنا بالتمرد، والتجاوز، والثورة، باعتبارها عناصر حداثة تحت مظلة اللايقين. ولكن لايقيننا يقيني ومقدس. ولا رحابة فيه للتناقضات والشكوك والمساءلة. وإلا لكانت الحداثة علمتنا، في أول لمساتها

الذهبية، التساؤل بشأن هذا التمرد، والتجاوز، وهذه الثورة، باعتبارها مفاهيم زمنية. كم هي صالحة، حقيقية، إنسانية، ولصيقة بمصلحة تطور الإنسان فينا؟

ما كنا نعرف أن الجاذبية في هذه المفاهيم تتعلق بما توحي فيه من انفلات من وطأة الجدية، وقيود العقل، والتزامات الكاتب المسؤول. أو كنا نعرف ونخاتل بفعل حرصنا على كسلنا الروحي. لأن اليقين أضمن للتوازن، والقناعة بالمعتقد الثابت تحتاج كلاماً وتبشيراً وخلافاً مع الآخر، لا قراءة وتأملاً وخلافاً مع النفس.

اليوم، ما من أحد يتحدث بالتمرد، والتجاوز، والثورة، بالطريقة ذاتها. الستينيون والأجيال اللاحقة لم تطفئ يقينها المقدس كليةً، بل قللت الإضاءة. وجدت مفاهيم بديلة لا تقل يقينية عن الحداثة وما بعدها، وعن الشعرية، والنص. إلا أن ما يبشر بأمل أن ثمة التفاتة ملحة إلى الوراء، إلى ما حدث، تأخذ برقاب الجميع.

يبدو أن ما حدث من كوارث موت، وخراب، ودماء، لم تكن بعيدة تماماً عن أعمدة الموقف النقدي تلك.

(٠٢/٥/٢٥)

مثقفو الماكنة الرسمية

الأجيال التي توالت منذ الستينيات، لم تكن، بحكم طبيعة المرحلة الشائهة، فاعلة. بل كانت طاقات متولدة من ردود أفعال. محاولات يائسة لإيجاد منافذ للتنفس. أجيالاً لم تُمنح أرضاً مستقرة، ولا نمواً طبيعياً داخل حضن الموروث العربي، أليفاً ودافئاً، ولا فرصة للحوار السليم والصحي مع الموروث العالمي، والغربي بصورة خاصة. ولقد دُفعت، بسبب هذا المناخ المتهاوي الخانق، إلى فقدان الثقة بالوقت. صارت ذاتها أقوى إرادة من الزمن، وأرادت أن تختلق معجزة داخل دائرة الوهم، فارتضت أن تقطفَ آخرَ الثمار المرئية من الثقافة الغربية (الثمار النظرية طبعاً!) تقطف منها وتبلع، موهمةً النفس بالقدرة على قطع المسافات بالقفز.

معظم نتاجها لم يكن إلا وليد ردود الأفعال هذه. ومشكلة ردود الأفعال أنها سلبية معظم الأحيان، تنحت مفاهيم ذهنية وأفكاراً تشبه بالونات هواء، تنمو وتتضخم بمعزل عن الحياة. معايير ومواقف هي ألفاظ في عزلة. يوتوبيا تشحنها مشاعر متسامية بفعل الإحباط الداخلي أو العجز، تتمحور على أنوية وهمية، لتكون محاور تصبح مقدسة مع الأيام. وهي تسمو وتكبر بمقدار تضاربها مع الحقيقة،

وابتعادها عن الواقع. ولذلك يبدو المثقف، الذي أنضجته مرحلة ما بعد الستينيات في حالة انفصام مفزعة. فهو يولد بصورة هستيرية مبادئ للحرية، والثورة، والتمرد، والجنون، والتفرد، والتجاوز، والتغيير، بقدر ما يسعى على أرض الواقع في أن يكون الابن المدلل لـ (مؤسسة) هذا الواقع المتردي. إنه يكتشف، بحساسية المحترف، أن (مؤسسة) هذا الواقع المتردي لا تبالي باليوتوبيا التي ملأ نصوصه بمفاهيمها، ما دامت هذه اليوتوبيا تقطع كل خيط مع الواقع. بل على العكس، إنها تقبل عليها متحمسةً هي الأخرى، ما دامت هذه المفاهيم تعزز من انفصال وابتعاد نصوص اليوتوبيا عن الواقع، وعن الحياة جملة.

مثقف الستينيات وما بعدها، مثقف (أنا) أنانية. صانع كتب. لا يشكل مع (أنا) المثقف الآخر إلى جواره ثقافة مجتمع. انه يقرأ ويكتب بمعزل عن أية فاعلية لهذه القراءة والكتابة في تطور ذاته، أو ذات المجتمع المحيط. إنه لا يعرف لماذا يقرأ ويكتب، ولمن يقرأ ويكتب، وهل البحث عن الحقيقة عنصر جوهري وفاعل داخل هذه القراءة والكتابة؟

إنهم يبدون، كأفراد، مستخدمين جيدين في تغذية الماكنة الرسمية بالكتب (دور نشر) والمقالات (صحافة) والعروض (مهرجانات).

(٨/٦/٠٢)

شاعر مكتب الوشايات!

في أكثر من حوار قرأت مع الشاعر سامي مهدي، يجيب عن السؤال المتوقع حول الكتاب والشعراء العراقيين، بشكل خاص، في المنفى، بأن هؤلاء توقف أكثرهم، والبقيةُ التي واصلت الكتابةَ بدت له شاحبةَ الصوت، بفعل جفاف مصادر إلهامها. ويؤكد بأن مصادر هذا الإلهام لصيقة بتربة الوطن وهواء الوطن. ونتيجة موات ونضوب هذه الأصوات متوقعة. فهذا مصير من يفضل العيش في برد المنافي على دف، شمس وطنه.

إن كثرة الالتباسات في رأي سامي مهدي تبدو في تزاحمها أكثر عدداً من كلمات إجابته. إنه يريد أن يضعَ قاعدةً، وهو يعرف أنها قاعدةُ غير سليمة، إذ إن عدداً كبيراً من الشعراء الكبار في العالم لم ينضج إلا بفعل منفاه واغترابه عن تراب وهواء الوطن. هذا المنفى احتل مكانةً كريمة في تاريخ الحضارة الغربية. هل أذكر سامي مهدي بدانتي، غروتيوس، روسّو، هاينه، وماركس، والكتب التي وضعوها في اغترابهم بعيداً عن أرض وهواء وطنهم، الذي جفَلهم عن ركن مولدهم وأمنهم؟ هل أذكره بهجرات المثقفين المذعورة من قناصي دكتاتورية هتلر: آينشتاين، توماس مان، بانوفسكي، بريخت ، غروتس، كاندنسكي، رينهارد ،

فالتر، بيكمان، وكولر بعد انهيار جمهورية فايمر؟ على أني أحرج من نفسي ومن نفوس الآلاف من المثقفين والفنانين العراقيين الذين يرون المقارنة مجحفة. فكم هو دام الفارق بين هجرات الآلاف من الألمان إلى أوروبا التي ينتسبون لحضارتها وأمريكا. وبين هجرات الملايين من العراقيين الذين لا ألفة بينهم وبين أي من بقاع الله وأجناسه، خارج فيء بيوتهم!

والشاعر المقيم في رئاسة تحرير جريدة الحزب يعرف أن عذابات المنفى واقتلاع الجذور سماد ذو غذاء عظيم، وأن الإقامة في موقع خدم الرئاسة غذاء تذوي به المواهب.

ثم هو يعرف أن هؤلاء الشعراء لم يخرجوا بحثاً عن معنى بل هرباً من المعاني السود . وهو يعرف أكثر من غيره بأنه هو شخصياً، إنساناً و شاعراً ورجل حزب حاكم، ليس ببعيد عن تجسيد واحدة من هذه المعاني السود. فواحدنا لم يهرب ذعراً من رجل الأمن وحده، بل خشية من المهانة والإذلال والعار، وقد غرقنا فيها مرغمين: مهانة أن نبتسم أبداً بوجه المدير وكاتب تقارير الحزب، وإذلال أن نصغي للإطراءات حول الشاعر الكبير، وعار أن لا نقول الحقيقة إلا حينما نخلو لأنفسنا همساً. والحقيقة تموت في الصمت وتتعفن.

وهو يعرف أكثر من غيره أن شعراء الحزب الحاكم، أي حزب، هم ليسوا شعراء. لأن رئة الشاعر لا تحيا إلا مع هواء الحرية، حتى لو كانت في معتقل. فحرية الشاعر لا تنتسب لطلاقة حركة الجسد الخارجية. وأنا أعرف مثله أنه غير حر حتى في حدود طلاقة جسده.

والشاعر سامي مهدي يعرف أيضاً أن الشعراء الذين هربوا ذعراً

منه إلى منافيهم الباردة حملوا في داخلهم موروثهم الثقافي، وفتحوه على أفق لا حدود له لموروث العالم الثقافي، فأصبحوا ولغاتُ الأرض تضج فيهم.

وهو يعرف أن منح صوته وكيانه لعائلة حاكمة غاية في الأمية، والسوقية، والرداءة، والقسوة، لن يفرغ هذا الصوت والكيان من الشعر فحسب، بل حتى من القدرة على ازدواج الشخصية، وهو آخر ملاذ يمكّن الإنسان من حماية وجهه الخفي وراء قناع ظاهر.

فأي منا، يا ترى، شحب صوته الشعري وجفت مصادر إلهامه؟ ساكن اللوعات في مفترق الطرق الغريبة، أم ساكن مكتب الوشايات؟

(٠٢/٦/١٥)

امرأة حائرة بشأن مكحلتها الضائعة

في حديث تلفوني مع فنان عراقي ممتاز، كان يحاول أن يعبّر بمشقة عن وطأة حصار يضاعف حصار المنفي فيه، كان يحاول أن يحدد مفهوم اللوحة لديه، بمفهوم الحرية، فرأسه خال تماماً من أي موروث انتساب إلى جهة أو عقيدة. يدخل إطار الكانفس بحرية الإنسان الذي يرى رؤى، ثم يحاول أن يجسد رؤياه بتشكيل بصري على درجة عالية من التوازن والهارموني.

كان يحاول أن يردد بأنه يعنى بالجمال أيضا. يعنى بالجمال دائماً. وبحكم احتراسي من الخلط بين الرؤيا الجمالية وبين الصياغات الشكلية، كنت أعلق على حديثه بأن الجمال في النهاية لا ينفصل عن رؤياه التي يجسدها في تشكيل رؤياه التي هي وليدة فعالية روحه، وعقله، ولا وعيه معاً. إنها جميلة للحد الذي تملك فيه أن تصبح شكلاً.

ولكن ما هو مصدر شكواه؟ يقول: إن عدداً من زملائه الفنانين العراقيين لا يرون في لوحته بعداً أو مناخاً عراقيين. ليس هناك من ذاكرة عراقية في لوحته. ومع كل ما يحدث طوال ربع قرن للعراق والعراقي، ظلت لوحته خالية من "دربونة"، أو جرح نازف، أو مشنقة، أو فم صارخ. وأنا، يقول الفنان، أجد في كل هذه التهم إجحافاً ولا أحسن فهم

مقاصدها. فأنا أرسم منذ أيام الشباب الأولى في العراق على هذه الطريقة حتى سنوات المنفى، وكل من يطلع على لوحاتي يؤكد قوة تأثيرها وجودتها. فإذا كنت فناناً عراقياً وفناناً جيداً في آن، فكيف يمكن أن تخلو لوحتي من عنصر على هذه الدرجة من الخطورة بحيث أعاب عليه؟

صاحبي الفنان الممتاز يجلس هو ومسراته وعذاباته داخل الحقيقة. والذي يجلس داخل الحقيقة عليك أن تتعرف على هويته الوطنية، ومشاعره تجاه أهليه، بالصورة التي تشاء مشاعره، وبالشكل الذي تتخذه هي. لأن هذه الهوية وهذه المشاعر ليستا وليدتي قوى لفظية وذهنية معدة مسبقاً على طبق المواقف النظرية والعقائدية. إنها هوية ومشاعر فنان فرد، تخرج بالصورة التي تفرزها خلاياه وأرصاله وأنسجته وشرايين دمه. وهي بهذا فريدة فرادة انتسابه لوطنه. هذا الانتساب الذي لا يقلد فيه انتساباً نموذجياً، أو نمطياً فرضته سنوات النضال من أجل الوطن. قلت لصاحبي الفنان بأن لوحته ذات خصيصة عراقية لم تخرج من نسخة أولى. وقد اعتاد فنانون آخرون البحث عن صيغة عراقية وشتان ما بين الإثنين.

في السنوات الطويلة الدامية كم أجد متنفساً إنسانياً حقيقياً في قصيدة، أو لوحة، أو أغنية عراقية ترصد امرأة حائرة بشأن مكحلتها الضائعة!

٢٠٠٢/٦/٢٢.

النثر فضاح العيوب

الشاعر يتغذى من النثر، أما من الشعر فقد يتصيد مصدر إلهام. النثر هو الأرحب، يسوح فيه الشاعر دون حدود. يجد محطته في فقرات أو صفحات من رواية، أو دراسة، أو يوميات ورسائل، أو حتى في نصوص صحفية. ولكن الذي يأسره دائماً هو نثر فن المقالة، يأسره لا في قراءته وحدها، بل في كتابته أيضاً. فهو أميل إلى عنصر الحرية الذي يتمتع به هذا النثر، إلى جانب العنصر الشخصي.

الشاعر الجيد ناثر جيد بالضرورة. وإذا تعطل جناح النثر، فان جناح الشعر لن يحلق بعيداً حتى لو توهم. ورداءة نثر الشاعر تحوجنا إلى البحث عن مواطن العيب في شعره، حتى لو كانت خافية، لأن النثر هو المعيار الأوضح والأكثر مباشرة لثقل الشاعر المعرفي، وسعة أفقه الثقافي، ودقة وعمق نظره التأملي والنقدي، ورهافة حساسيته أمام الأشياء، والأفكار.

والناثر الجيد يسعى أبداً لاستخدام نثره، لأن ينتفع من طواعيته، من أجل أن يعرض للضوء ثمار ذلك الثقل المعرفي وسعة الأفق، وعمق التأمل. وكما أشرت في مطلع الحديث لن يجد مجالاً أكثر فتنة وإغواءً

من فن المقالة، لأن النثر فيها لا يعود وسيلة مجردة شأن الدراسة، بل يصبح وسيلة وغاية في آن. تصبح الكلمات والجمل والفقرات ذات سيادة لا في وحدتها مع الدلالة (مثل القصيدة) فقط، بل في عناصر التصارع والنمو والتنويع (مثل الموسيقى)، وعناصر الإيحاء البصري (مثل اللوحة).

كل شاعر غربي جيد، كاتب مقالة من الطراز الأول. والناس، بعد أن تألف صوته الشعري، تبدأ بملاحقة مقالته بصورة أكثر شغفاً من متابعة شعره. رحلتهم مع قصيدته عمودية شاقة. ومع نثره، في المقالة الأدبية، أو النقدية، أو الثقافية، تكون رحبة كأفق. ولذا تنتخب وقتاً خاصاً لقراءة قصيدة من بيتس، إليوت، أودن، هيوز، لورنس ، شيموس هيني، ميووش، برودسكي. ولكنك تميل إلى قراءة مقالاتهم في أي وقت.

دواوينهم في مكتبتك معززة دائماً بكتب نثرهم. بالمقابل تنفرد وحدها دواوين شعرائنا على الرفوف. تعدك بالرحيل مع قصائدها رحلة عمودية شاقة، هذا إذا ما كانت كذلك حقاً. أما رحلة النثر الأفقية الرحبة فلا وجود لها ولا أمل منها. حتى لترتاب من أن الشعر قد يستر العورة، والنثرَ فضّاحُ العيوب!

(٢٩/٦/٠٢)

عن لغة حداثتنا

هناك أكثر من مصدر لتغذية الأزمات الفكرية والروحية. مع الأيام أشعر أن حقل الترجمة عن ثقافة الغرب هو أبرز هذه المصادر. تخيل أن حقلاً لم يعتبر حتى الآن إلا نافذة مشرقة لنور المعرفة الجديدة، يملك وجهاً آخر سلبياً مناقضاً. لقد لقنتني القراءة في الإنكليزية درس الكشف عن هذا الدور المزدوج. إن الغبطة العميقة التي تولدها موجة المعرفة، وهي تأخذني مع المصطلح الشاف، والجملة الدقيقة، والعبارة المشبعة، واللغة المتطابقة مع خبرة الحياة، التي ولدت منها وتغذت ثم أعطت لها ورفت، إنما تطرحني في النهاية على شاطئ مثير للارتباك والالتباس أيضاً. يحدث ذلك لا بسبب المعرفة الجديدة. فالمثقف الحقيقي يستنشق المعرفة الجديدة مع الهواء الذي يتنفسه. إنما الارتباك والالتباس يتولد من لغته الأم. فأنا أفكر، كما أقرأ وأكتب، بوساطة اللغة العربية. وأعبئ هذه اللغة كل يوم بمصطلحات وصياغات جمل وعبارات لغة أخرى، وقد سلختها كما تسلخ القشرة، عن قاعدتها الحية في الزمان والمكان.

نعم، أنا كفرد أشعر مغتبطاً باستيعاب قصائد إليوت ومواقفه النقدية. وتأسرني انتباهاتي البعيدة لرباعيات بيتهوفن الأخيرة، ولهواجس گوگان الميتافيزيقية. ولكن استيعابي وانتباهاتي داخلية،

شخصية، وفردية. وتفاعلي مع تلك المصادر يتم في غرف الأعماق السرية، بمعزل عن لغتي العربية وعن حياتي العربية، حتى لأبدو أشبه بفتى حالم داخل صالة سينما مظلمة، غارق بحكاية حب في مركبة فضاء تتجه إلى كوكب الزهرة.

وكما يغادر هذا الفتى شاشةَ السينما، نغادر الكتبَ والشواهدَ الغربية، ونتجه إلى لغتنا وثقافتنا وحياتنا. وكما سيجد الفتى شوارع مدينته وحياته الاجتماعية خالية من طلاقة الحب، ومن سحر العلم الذي أخذ الإنسان إلى الكواكب، كذلك سنجد لغتنا وثقافتنا وحياتنا. خالية مما يمكن أن يجعل أحدنا قرين إليوت وبيتهوفن وكوكان. فنحزن وننكسر كما حزن وانكسر الفتى الحالم. ولكن هذا الفتى البسيط لم يصعد منارة الجامع ويدفع بنفسه من ذراها إلى الفضاء، ليحلق شأن المركبة إلى الكواكب. خبرة الحياة علمته استحالة ذلك. أما نحن أبناء مرحلة الحداثة، فقد فعلنا ما هو أكثر حماقة. حولنا الحزن والانكسار، بفعل عامل الارتكاس النفسي، إلى تعال وتحد، وهما أخطر مظاهر إيهام الذات. وبدأنا نتعامل مع اللغات الغربية والثقافة الغربية بندية، ونتعامل مع لغتنا العربية وكأنها وريثة عصر النهضة وعصر الحداثة كله، حتى مرحلة خلق الجينات الحية في أيامنا هذه. والحقيقة أن لغة حداثتنا ليست إلا قشرة لماعة تنعكس عليها ألوان ثقافة الغرب. أما ما وراءها فتتحرك ببطء لغةٌ يتيمة، مُثكَل بها، مثقلة بالتاريخ والتطلع إلى الحياة الجديدة والإنسان الجديد، لكي تكون جديدة بدورها.

(٦/٧/٠٢)

في اليوم الموعود

اليوم الموعود سيقبل، سيحل على العراقيين، حتى ليجفل أحدُنا وكأنه يستيقظ من كابوس، ناشفَ الوجه، كليلَ اللسان، بطيءَ الاستجابة. يخرج من بيته القديم، وعلى امتداد "درابين" محلته لا يجد من يسائله عن هويته العقائدية، والقومية، والطائفية، والعشائرية، والوطنية. نعم، حتى هذه الأخيرة، التي لا معنى لها، تبخرت مع ما تبخر من دخان في أفق هذا اليوم الموعود.

كانت الوطنية صفةَ انتساب، كما ينتسب اللون الأسود للباذنجان. وكنا نعرفها صفة للتربية في كتبنا المدرسية الأولى. ولكن الأجيال سلبتها من القاموس ومخَضتها، مع السنوات، مخضَ اللبن لتخرج منها زبدةً سوداء سامة، حتى أصبحت صفة الانتساب هذه معياراً. وأصبح شاعر مثل حسين مردان يلتفت لي، على مائدة گاردينيا، ليهمس خشية أن يصغي أحد: "يُقال إني شاعر وطني! هل تصدق ذلك؟" أجيبه هامساً: "عليَّ أن أجد معنى لذلك أولاً، حتى أصدقه أو أكذبه."

ما كان أحد منا وطنياً. كان حسين مردان يحلم كل حياته بشارع "جاده سي" في إسطنبول، وأنا برصيف الأكاديمية في أثينا سقراط. في حين كان دخان الوطنية يلوث بالقداسة كل شيء: النهر وأسماكه، والنخل

وقصب الأهوار. حتى جدائل الشبيبة، التي لا تليق إلا برائحة الحناء، فسدت رائحتها بفعل دهان الوطنية. وصارت لا تتطاير إلا على هواء خفق رايات الوطنية وتحت ظلالها. والشعر هو الآخر، كم أصبح مخموراً مبحوح الصوت وتحول، من حيث لا يعرف، إلى نشيدا مشاهد القتلى صارت لا تُبكي، بل تنفخ الروح بمزيد من أمصال الحماس الوطني. وسنوات الوطنية الطوال محيط قتلى، وانتهاك، وكراهية لا حدود له.

في اليوم الموعود، الذي سيحل على العراقيين، سنتعرف على الوطن من جديد. سنتعرف عليه عارياً من الوطنية، رحباً، نتبادل وإياه الشتائمَ دون مخاوف.

(٢٦/٧/٠٢)

عن السياسي في الشاعر

كل شاعر حقيقي هو سياسي بالضرورة. بالمقدار ذاته الذي هو فيه فيلسوف، وفنان، وتبشيري، وذو رؤى.

إنه شاعر سياسي إذا عرّينا مفردةَ السياسي من كل القشور المبتذلة، التي راكمتها الظروف المؤقتة العابرة، بدءاً من دعاوى الحماسات الوطنية والقومية، حتى دعاوى الانتماب العقائدي والحزبي.

إن من مهمات الشاعر الحقيقي السعي إلى الأخذ بيد الكائن الإنساني إلى مراتب أنبل وأعمق وأجمل في وجوده المتحقق. وهذا المسعى جوهر سياسي وفعل سياسي، لا يتولد من نشاط حزبي، أو نشاط في السلك الرسمي، بل من أفكار ومشاعر ورؤى ، هي عدة الشاعر ، في حين ينصرف للأولى الآخرون جميعاً.

المضحك المبكي أن معنى السياسي في حياتنا الثقافية هو وليد تلك القشور المبتذلة ، التي راكمتها الظروف المؤقتة العابرة. ولذلك صار، بفعل الابتذال القشري، معنى للطعن، ومعنى للتمجيد حسب الظروف. فهذا شاعر لا شأن له بالسياسة، قد تعني سبة أو إطراءً، مستمدة أهواءها من أهواء المعترك العقائدي الحزبي، ومعترك السوق (حب المصلحة)

السياسي في الشاعر يستمد غذاءه من خبرة الحياة كما هي، دون تمويه وأقنعة. ومن خبرة المعرفة منذ إفلاطون، مروراً بأبي العلاء، حتى آخر مفكر وشاعر يطل على أبنائه إطلالة الحاني المسؤول.

إن شعراء مثل أبي العلاء، وأبي نؤاس، والسياب، وعبد الصبور، والبريكان، هم أعمق وعياً سياسياً من كثيرين ممن طلعت شهرتهم على الناس بفعل انشغالهم وانتسابهم السياسيين.

فالقسم الأول، احتضن الإنسان، كما هو، عارياً من أي عقيدة وانتساب، وعالج محنته، وغنى آماله.

القسم الثاني، انتخب بطلاً بعينه، بفعل توافق الانتساب وخصائص اللباس، واحتضنه وغنى له.

الأول لا أعداء في شعره، ولا كراهية بالتالي.

الثاني يزدحم شعره بالأعداء، بالكراهية.

هل تشم رائحةَ كراهية في شعر أبي العلاء، أبي نؤاس، السياب، عبد الصبور، البريكان؟

للمقارنة، تصفح شعر المتنبي، الجواهري، البياتي...

(٢/٨/٠٢)

الموهبة وأقنعة اليقين

ذو الموهبة يخرج من براءة صباه معبأ بالحيرة والتساؤل. يريد إجابة عن أسئلة يعرف مع الأيام مقدار استعصائها. ثم يبدأ يعرف أن عمق موهبته يتسع باتساع هذا الاستعصاء والاستحالة. ومن هنا تبدأ مشاعر الابتهاج والاحتفاء بما هو غامض وموارب ولا يقيني. ويبدأ التعارف الحقيقي مع الحياة.

في المرحلة ذاتها يدخل ساحة الآخرين، أرصفةً وشوارع الناس، الذين أجمعوا على تصور، والتفوا حول معتقد. يدخل دفء بحيرة المجموع، الذي هو دفء اليقين، وحرارة الإيمان المولدة عن صيانة الإنسان من التساؤل والحيرة. يجد استجابة لذلك بفعل الغريزة، غريزة الإنسان السوي. إنه كالطفل الذي يذعر من تصدع حماية الأبوين. ولكنه يشعر، في اللحظة ذاتها، بأن موهبته، عماد فرديته، تقول بالهمس كلاماً آخر، وتندفع باتجاه على غير جادة. وتحدق في نقطة لا تشير إليها السبابة، كما يقول المتصوفة. إن جوهرها يتغذى بالقصور والنقص، ويتعارض مع التكامل. ولذلك ترى إغواءها بدفء اليقين وبحرارة الإيمان ضرباً من التحجيم والإلغاء والإعدام. والأنكى من ذلك، أنها ترى في الحياة التي

تحيطها مجرد قوى لكبحها وإلجامها وإعطائها دور المهرج. وهي بطبعها نافرة، محاجحة، وشاردة الذهن.

ولكن، ياللأسى، كم هو سهل مكسرُها، ويسير تزييفُها والاحتيال عليها، وإلباسها قناع اليقيني المؤمن!

على أن الموهبة، حين تخرج على الناس بذلك القناع، لم تعد موهبة. فقد استبدلت جوهراً بجوهر. تخلت عن الحيرة والتساؤل، وهو ينبوع حياتها، واستسلمت لوسادة اليقين. هجرت ساحة معتركها الداخلي بين مدينتي نعم و لا (في قصيدة يوفتشنكو)، والتجأت إلى ساحة المعترك الخارجي، حيث اليقين هو جوهر المعترك، لا الحيرة. وحيث الإيمان هو الدليل لا التساؤل.

في ساحة المعترك الخارجي لا نرى مواهب، إذن، بل أقنعة تقوم بدور المواهب. أقنعة باسم المعتقدات اليقينية الثابتة. باسم الإجابات الجاهزة، بيضاء نقية، بلا غضون ولا ملامح، مثل قطعة الثلج.

(٠٢/٨/١٦)

ثقافة الاعلام وثمرتها الفاسدة

حين أتحدث عن مفاسد لغة الإعلام، التي هيمنت على حياتنا الثقافية، على امتداد السنوات الخمسين الماضية، لا أقتصر مطلقاً على إعلام السلطة. فهذه السلطة وليدة قاعدة أوسع منها في الفوضى السياسية. بل أعني إعلامَ الحركات والأحزاب السياسية جملةً أيضاً، لأنها الأكثر تأثيراً بفعل ارتباط الكتاب بها.

كانت اللغة هي وسيلة هذا الإعلام الوحيدة، وما زالت. ولم تدخل الصورةُ إلا نسبياً. واللغة هي أداة الصحافة والإذاعة والبيانات والمنشورات والكتب الرسمية، وهي أداة صحافة، ونشاطات، وكتب الأحزاب المعارضة داخل البلد (وخارجه فيما بعد).

وهذه اللغة هي أداة الشعر والقصة والدراسة وكل أساليب التعبير الأدبية والفكرية. وأصحابها منتمون جميعاً لأحزاب المعترك الشاق في السنوات الخمسين الأخيرة، وإيجاد فاصل بين مهمات مختلفة داخل هذه اللغة هو مسعى وهمي بسبب استحالته. فما الذي حصل؟

حصل أن القصيدة التي تكتب بلغة المنشور السياسي تواجه بالنقد البناء من قبل لغة نقدية هي وليدة ثقافة الإعلام (الرسمي - الحزبي) الشائعة. فتأخذ عليها، لا تحريف مهمة الشعر الجوهرية، بل تحريف الأسلوب الشعري، فتدعوها إلى اللامباشرة.

وأصبح النص الأدبي، بفعل انشباهة الحداثة (الإعلامية) غير مباشر. وكأن هذه الميزة هي جوهر شعري. في حين أنها وليدة احتيال لا غير. لأن المأخذ الحقيقي هو أن هذه القصيدة لم تخرج من ذات متسائلة باحثة، بل من قناعة وهمية أملاها المعتقد السائد المشرب بالقداسة. خرجت من الشاعر، مدعومةً بحماسة هستيريا الإجماع. ولكن النقد (الإعلامي) لا يفكر بمكاشفة كهذه. لأن بين لغته ولغة النص الأدبي مهمةً مشتركة هي، في أبسط أشكالها، الدفاع عن الأفكار والمثل المتفق عليها في الاجتماع غير المعلن. في حين أن مهمة القصيدة هي الدفاع عن الإنسان، حتى وهو مقموع في شخص القاتل، الذي هو عدوي.

٢٣/٨/٢٠٠٢.

مراجل الغليان الثلاثة

منذ سنين وأنا أحيط مفهوم الحرية بالحذر، وأتوجس خيفةً منها، وهي تنبت وتورق وتزهر في رؤوس الأجيال المتلاحقة من مثقفينا. على الضفة الأخرى، ضفة العزلة، أرعى بإشفاق مفهوم القانون المنسي. أمسح عنه غبرة النسيان وأؤمله، وآمل معه، بفسحة يحتلها في رؤوس الأجيال القادمة.

منذ سنين وأنا أخشى مفهوم الثورة وأرتاب فعلها. أقلب صفحات التاريخ الحديث ولا مهرب من الدم الذي خلفته على سطوره. وفي الضفة الأخرى، علمتني المحن أن أطمئن إلى التطور البطيء. فهو رفيق الحاضر، والثورة رفيقة المستقبل الذي يسكن الغيب.

منذ سنين أيضا، وأنا أكاشف النفس بما يخفيه درس الاشتراكية من مهاوٍ، وأحلامها من مخالب وأنياب.. تعلمت أن لا أخدع النفس باختلاق فاصل بين النظرية في كتاب، وبينها وهي تتجسد على الأرض، بهيئة أحداث وأشخاص. فلقد أخرجت بحكم الضرورة: ستالين، وماو، وكيم إيل سونغ، وشاوشيسكو، وكاسترو (وظلالهم القاهرة في عالمنا العربي)، وستخرج بحكم الضرورة أشباهاً لهم ونظائر. وفي ضفة العزلة أخليت كل نظرية من القداسة فذبلت. لأن النظرية لا تسمن إلا مع

القداسة. ومعها تصبح حيواناً كاسراً. ولذا ألقيتها كقشور البطيخ الذابلة في مجرى الحياة الدافق.

العزلة هي الضمان الوحيد داخل ثقافة تشكل مفاهيم الحرية و الثورة والاشتراكية فيها ثلاثة مراجل، تكفل تواصل الغليان في رؤوس أبطالها. أما مفاهيم القانون، و التطور الطبيعي، وتحاشي اليوتوبيا المقدسة، فلن تأخذ مكانها في الحياة السوية إلا بعد أن تُطفأ المراجل الثلاثة.

ولكن ألا تبدو هذه المراجل على وشك الانطفاء؟ أم أن عويل الآلام، وعواء القتلى، قد غطى على وسوستها وهلة؟

إن الدعوة إلى إعادة قراءة كتب هذه المراجل الثلاثة وهي في غليانها، ومحاولة إدراكها بصورة تتوافق مع مصلحة الإنسان وحلمه بالحياة السوية، لتبدو مستعصية الآن، ونحن نقف على مرحلة تتزاحم بجثث القتلى والهاربين.

فهل نعيدها إلى الرفوف ثانية ولزمن، حتى تنسلخ عنها قداستها. وتُنزل بدلها من الرفوف كتب القانون، والتطور الطبيعي، والعقل غير المعتقل بالعقيدة الواحدة؟

(٠٢/٩/١٣)

الحرية تزهو من كتاب القانون

في الحديث السابق لم ألعن الحرية، ولا الثورة، ولا الاشتراكية، التي ستأخذ بيدنا إلى المجتمع العادل. وما من عاقل يفعل ذلك. وكأن المفاهيم الثلاثة شرور في ذاتها. الخبرة الدامية، التي قطعنا شوطها نحن العراقيين، علمت بعضنا أن يتوقف ليتأمل رأسه المعبأ بمفاهيم عديدة، لمْ تزهُ واحدةٌ منها لصالح الإنسان. صحيح أن هناك من يرى بأن الخير الكثير المتوقع منها قد قمع بفعل القوى الأجنبية، التي لا تريد للعراق خيرا. ولذا فالشر كامن في هذه القوى، لا في تلك المفاهيم! إلا أن الأمر حدث بالمثل لبلدان أوسع منا حجما، وأثقل وزنا، وما كان للقوى الأجنبية من تأثير عليها. مثل روسيا حتى زوال ستالين.

في الحديث السابق أوحيت بأن المفاهيم الثلاثة لم تكن أكثر من قوى لفظية، أُقحمت في ماكنة لغة ثقافة الإعلام، كما تقحم الأفكار والاجتهادات في قبو العقائد العمياء، لتصبح مجرد أسلحة للتهديد وللقتل. الأفكار والاجتهادات تفقد زهوها وحيويتها وقدرتها على تغيير ألوانها حين تقحم في قبو العقيدة العمياء.

الحرية واحدة من هذه المفاهيم. تأمل إحياءها داخل شعار: وحدة، حرية، اشتراكية. أو تأملها في شخص صدام حسين، الذي لم يتصرف

إنسان بحرية أكثر منه منذ ثلاثين عاما. أو تأمل حرية النص تحت قلم إنسان جاهل.

الحرية ذات عناصر لا تتوازن وتمتلئ بدلالتها إلا بها. تماما مثل حرية الكاتب، التي لا تتحقق إلا بالمعرفة. والمعرفة ضوابط وشروط وقوانين.

هنا نتعرف على أبسط معاني الديالكتيك. فضوابط وقوانين الشعر تعطي معنى لحريته. والإنسان أوسع وأعمق من الشعر: حريته العزيزة عليه لا تزهر إلا في حضرة القانون.

في الحديث السابق أوحيت بأن الحرية، التي هيمنت على مشاعرنا وأفكارنا وأفعالنا، ليست إلا قناعا لفظيا للفوضى. كانت تتغذى أبدا من غياب القانون وتسمن وتتبغّل. إنها جاءتنا من كتب فاضلة، حاولنا قسراً أن نفصلها عن قرينها القانون، لنتمتع في مرعاها البري مع الوعول والحيوان الكاسر. وبفعل الخبرة الدامية، التي قطعنا شوطها نحن العراقيين، رأيت أن ننزل من الرف كتاب القانون المهمل، نتأمل فيه بقية العمر، لعلّ زهرة الحرية تطل علينا منه زاهية، حيوية، عديدة الألوان.

(٢٠/٩/٠٢)

في ساعة الخلاص أية أغنية سأسمع؟

في الساعة التي أسمع بزوال سلطة صدام حسين أفضل أن أصغي هادئا لأغنيات من داخل حسن، أو مقامات من يوسف عمر، على أن أقف موتورا مع أي نشيد ثوري، أو أغنية حماسية؛ لا لأنني شبعت من هذا الطراز الأخير فقط، بكل ما ينطوي عليه من تلفيق عاطفي وإعلامي، بل لأني تعلمت أيضا، أن في الساعة الدامية الحرجة يحتاج الإنسان إلى من يُشعره بأن الحياة، خارج دوامته ودواره، ما زالت على حالها، تتدفق مثل صوت داخل حسن ويوسف عمر.

وفي الساعة ذاتها سأفضل أن أنفرد مع قصائد من محمود البريكان والسياب وحسين، على أن أعرض جراحات روحي لحماسات الجواهري والبياتي الثورية التأليبية. الأول يرفعني إلى ما يستحقه الإنسان بي من نبل في التأمل والفعل. والآخر يسعى إلى أن يحيل إنسانيتي إلى مجرد ردود أفعال زائلة. وفي ساعتي الأسى و الانتصار أحتاج عافيتي وصحة عقلي. أحتاج الذي يذكرني بهما.

في أحيان كثيرة أسمع شكوى عمن يكتب عن الشعر واللوحة والموسيقى داخل هذه الساعات العراقية الحرجة. وأنا لا أنكر على الشاكي حرقةَ قلبه. ولكنني أخشى على حرقة قلبه من التأليب. فقراءة

قصيدة عن البرق للبريكان، ورؤية لوحة عن حمار الفنان الكردي رستم، والإصغاء إلى تألقات "تحرير" المقام بصوت يوسف عمر، أو التحام الآلات الوترية الأربع في رباعية بيتهوفن، هي الأجدى لحرقة القلب في ساعة الأسى، أو ساعة الانتصار، لأنها وحدها القادرة على أن تولد من حرقة القلب شعلة فانوس أو فناراً للهداية، لا فتيلة مدفع للقتل والتدمير.

إن حقول الأناشيد، والقصائد، والفنون الثورية المتعالية الحماس، المبحوحة الصوت، أعطتنا الكثير من المحاصيل السامة. على بوابة هذه الحقول يرتفع شعار "كل شيء من أجل المعركة".. في الساعة التي نسمع بزوال ليل صدام حسين، هل ستغادر هذه الحقول وشعارها إلى الأبد؟ هل ستفلت من أفق المعركة، الذي أسهم في اختلاقه، على امتداد نصف قرن، المثقفون الثوريون والسلطات الثورية، يداً بيد؟!

(٢٠٠٢/٩/٢٧)

العراقي الذي يصغي لنزيفه

مشاعر الأمل لدى العراقيين معقودةٌ بزوال سلطة الطاغية، ومشاعر اليأس معقودة ببقائه. مشاعر تتقاسم كل مسام كيانهم، وما من فسحة متروكة بين هاتين للمشاعر المتبطرة بشأن مطامع القوى الإمبريالية ومطامعها، حول آبار النفط، أو كراهيتها الغريزية للشعوب! فمن ينزف لا يفكر إلا بإيقاف نزيفه.

اليوم يحدق العراقي في أفق يأسه المعتاد، فيرى الساعة أمل بزوال الطاغية. القوى التقدمية المحبة للسلام تنظر إليه بعين الاتهام، لأن أمريكا، التي تريد إزالة الطاغية هي التي عززت سلطته بحكم المصلحة، فلِمَ يطمئن إليها؟ عليه أن يطفئ الأمل ويواصل دوره كقتيل، أو شهيد. فهذا أكثر انسجاماً مع دور الشعوب المناضلة.

العراقي، طبعاً، لا فسحة في كيانه للانشغال بصراع القوى العالمية أو صراع الطبقات. إنه ينزف منذ ثلاثين عاماً، ولا يفكر إلا بإيقاف نزيفه. القوى التقدمية، والقوى الإسلامية، والقوى العروبية لم تلتفت إليه ساعةً، من بين ساعات الأعوام الثلاثين، وهو يُذبح ويدفن ويُنبش قبره كل اليوم. وها هي تستيقظ فجأة، وتهرع اليه صارخة فيه أن يواصل احتمال الذبح والدفن والنبش كل يوم، على ألا يستعين بالقوى

التي تطمع بخيراته، وبنفطه خاصة. شعراء وكتّاب هذه القوى المناهضة للإمبريالية ما زالت تنشد بأسى زوال أيام " إنا سنجعل من جماجمنا لمجدك سلماً". وتتهم كل دمعة عراقية، وكل دم عراقي نازف، وكل مطعون عراقي عند قبره بأنها مشاهد استعطاف للمنقذ الإمبريالي.

العراقي لديه ذاكرة الذبيح، يعرف أن أكوام الجماجم التي صممها فنان صدام حسين ووضعها تحت نصب السيفين في بغداد، هي من وحي خيال هؤلاء الشعراء والكتّاب، وثمرة من ثمار أفكارهم الناشطة أبداً باتجاه المعترك. ويذكر أن الوجوه التي كانت تفد طوال الأعوام الثلاثين، أعوام المذبحة، على العراق نافعةً منتفعةً، لم تكن إلا وجوههم. ولم ير في حياته وجهاً، أو قناعاً، ممثلاً للإمبريالية الطامعة.

كانت القوى التقدمية، المحبة للسلام أفراداً أو أنظمة، تغذي سلطة القاتل على امتداد سنوات الموت بتقنيات الإبادة، وتحيط مذبحته بالصمت. وها هي تهرع إلى الذبيح وتصرخ به: قاوم ولا تستعن بالطامعين في خيراتك! والعراقي لا يصغي لصرخهم فيه، فقد امتلأت أذناه، منذ سنين، بضجيج نزيفه.

(٢٠٠٢/١٠/٤)

من يلبس ثياب الإمبراطور؟

بقلم:زهير الجزائري

منذ فترة وأنا أتابع العمود الأسبوعي لصديقي الشاعر فوزي كريم "ثياب الإمبراطور"، وأكاد أعرف الموضوع الثابت الذي يحذر منه: تحول الشعارات العقائدية إلى دوامات دم جديدة، وهو موضوع لنقاش طويل. لكن استثارني مقاله الأخير "العراقي بصفي لنزيفه" . فلأول مرة أسمع فوزي يتحدث عن مشاعر أمل، وما عرفته إلا متحدثا عن مشاعر اليأس، ولأول مرة أسمعه يتحدث باسم العراقيين، وما عرفته الا منعزلا عن أي تجمع لعراقيين، حتى ولو في أمسية شعرية لواحد من أصدقائه.

في مقاله هذا يسخف فوزي أية شكوك "للقوى التقدمية المحبة للسلام تنظر (للعراقي) بعين الاتهام، لأن أمريكا التي تريد إزالة الطاغية هي التي عززت سلطته بحكم المصلحة، فلم يطمئن إليها؟". وما بين القويسات هنا، وعلامة الاستفهام المتهكمة للشاعر فوزي كريم نفسه.

وقبل أن أساجل صديقي فوزي أحب أن أقول مقدما إنني أخالف الذين يعارضون و يعولون كليا على العامل الوطني. فمنذ أن كنت أحمل السلاح في الجبل وحتى خروجي للمنفى، علمتني التجربة اليأس أكثر من

الأمل، بإمكانية خلاص العراقيين بقواهم الذاتية، من نظام كان الأول في التاريخ الذي استخدم أسلحة الدمار الشامل ضد شعبه. النهاية المأساوية لانتفاضة عام ١٩٩١عززت يقيني بأن العراقيين استنزفهم القمع والحصار، وما عاد ممكنا خلاصهم إلا بعون دولي.

لكني، أنا العقائدي اليساري، لا أملك يقين فوزي كريم بفكرة واحدة. هناك إثنان يتصارعان داخلي لدرجة ما عاد ممكنا الفكاك منهما: أحدهما يريد التخلص من هذا الكابوس الجاثم على وطني، وأحلامي، وكلمتي، المتمثل في حكم صدام حسين، حتى ولو بالحرب، وآخر وسواسي يريني صورة الحرب كما يرسمها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد بإشارة من يد مرتخية تأخذ شكل طائرة محلقة في سماء العراق، وتقصف من علو "لكي نجنب طيارينا ـ التعبير لرامسفيلد ـ مخاطر المقاومة الأرضية."

خيال الكاتب وليست عقائدية السياسي تنغص عليَّ أمل الخلاص بصورة الدمار الأرضي لجنود سيموتون، وبيوت ومعالم أحببناها، وتغزلنا بها، ستنهدم على أهلها خلال هذا القصف. ويعزز هواجسي هذه إدراكي أن الطاغية الذي يدرك قرب نهايته يتعمد إخفاء أسلحته، ومنها أسلحة الدمار الشامل، في أكثر الأماكن أذى للناس وللعراق: مدارس، مستشفيات، محلات شعبية، جوامع، كنائس، متاحف...

الخوف الآخر من جبروت القوة الكبيرة، خاصة إذا عرفنا أن القسم المتحمس للحرب هو من يمين اليمين في الإدارة الإمريكية، الذي يخالف حتى أقرب الحلفاء توني بلير، في مساعيه للربط بين حل القضيتين العراقية والفلسطينية بخط متواز.

ليست هواجسي هذه مجرد خيالات روائي، إنما يعززها ماض قريب حين خذل بوش الوالد العراقيين بعد أن حثهم على الخلاص من الطاغية، فاسحا المجال لطائرات ومدافع الطاغية كي تطارد المنتفضين حتى تخوم الصحراء. ليست هذه مخاوف يساري يا فوزي، فهذا الصراع بين النقيضين بحكم كثيرا من العراقيين الذين انتقيتهم، ومنهم القوى التقدمية، والقوى الإسلامية، والقوى القومية خارج العراق، التي تتهمها بأنها لم تلتفت ساعة من بين ساعات الأعوام الثلاثين للشعب الذي "يُذبح ويُدفن ويُنبش قبره كل يوم". ولا أدري كيف يبيح شاعر مثل فوزي لنفسه هذا الحكم القاسي على قوى بدأت بمعارضة النظام بالعمل المسلح ونزفت شهداء، وسجناء، قبل أن تصبح المعارضة ميسورة من فنادق الدرجة الأولى، بعد حرب الخليج الثانية. وقدمت الشهداء الذين نزفوا ونبشت قبورهم والذين اختفوا حتى دونما قبور. أرجع وأقول إن هذا التعارض والخوف من الإمبريالية لا يتملكني وحدي، أنا اليساري بالتاريخ والفطرة، إنما يحكم أكثر السياسيين برودة دم وأبعدهم عن اليسار. فمن الصعب اتهام معارض مثل سعد صالح جبر باليسارية حين اعتزل غاضبا على الإدارة الأمريكية لأنها سربت معلومات عن محاولة انقلابية للإطاحة بالطاغية. وأتمنى لصديقي فوزي أن يستمع لأكثر من صوت، ومنها صوت الرئيس الأمريكي السابق كلنتون، في مؤتمر حزب العمال وقد قال: لا ينبغي أن نعفي أنفسنا من مسؤولية صعود صدام وبقائه بعد حرب الخليج الثانية .

لا يتعلق الأمر بماض قريب إنما، تمنيت لو أن فوزي كان أكثر اجتهادا في متابعة المستجدات المخيفة. بدلا من السباحة في مياه

التفاؤل الساذج، فلدى الطاغية سيناريوات للتنازل حتى حرمة بيته حين يمس الأمر سلطته. والتنازلات اليومية لفرق التفتيش تكاد تستبق الشروط الأمريكية وتزايد عليها. ومن الجانب الامريكي هناك أحاديث لمسؤولين كبار تقول بامكانية التخلي عن مشروع تغيير النظام، إذا ما تأكدوا من إمكانية إفراغ العراق من أسلحة الدمار الشامل. ليست الأمور يا عزيزي فوزي بالسهولة التي تتصورها: مشاعر أمل لدى العراقيين معقودة بزوال السلطة، ولن تصبح الدنيا بحيرة يسبح فيها الحمام كما تقول الأغنية الشيوعية، ولا كتلة بغداديين كما يتصور البعض. بودي يا صديقي فوزي أن تنزع ثياب الإمبراطور الواهم الموهم، وترى للمأساة أكثر من وجه.

١١/١٠/٠٢.

اقبض على قدرك، واستيقظ إنساناً جديداً!

الموسيقيون الغربيون، في الحقل الكلاسيكي، اعتمدوا مصدرين لاستلهام مادتهم الدرامية من أجل التأليف في فني الأوبرا والأوراتوريو. المصدر الأول وجدوه في التراث اليوناني والروماني (في التاريخ، الملحمة والدراما). والمصدر الثاني وجدوه في التوراة. هذه القاعدة كانت سارية المفعول في مرحلتي (الباروك)، و (الكلاسيكية) حتى نهاية القرن الثامن عشر. مع المرحلة (الرومانتيكية) بدأ الموسيقيون، مثل كل الفنانين، يبحثون عبر التاريخ والأساطير عن الإنسان، بكل ما ينطوي عليه كيانه من مشاعر، وفردية، وفاعلية، وعزلة أيضا. الإجابات اليقينية تلاشت مع المُثُل الثابتة، وحلت بدلها التساؤلات والحيرات التي لا يقين وراءها. ولم تتخلخل هذه القاعدة الرومانتيكية حتى داخل تيارات الحداثة المتعارضة المتزاحمة. وصار الموسيقيون يرون مادة صالحة حيث يكون المأزق الإنساني، في أي زمان وأي مكان. على أن العصر الحديث وسع من أفق المبدع في مساحات إنسانية ما كان ليلتفت اليها من قبل، بفضل اكتشافات ماركس، فرويد، داروين وإينشتاين.

في هذه المساحة الإنسانية أطلت الملحمة العراقية (گلگامش)، أول ما أطلت، على الشعراء الغربيين في كل لغاتهم. فانتفعوا منها، كلاً

على هواه، ومن زاوية رؤيته الخاصة. وما زالوا ينتفعون. وأحسب أن استجاباتهم في المستقبل ستكون أوسع مما هي عليه الآن. لأن عمق هذه الملحمة ذو طيات، تتفتح بمقدار ما تطمع البصيرة. وبصيرة المبدعين لا حدود لها.

استجابة الموسيقيين للملحمة جاءت متأخرة نسبيا. لعل أول محاولة هي التي قام بها التشيكي مارتينو (١٨٩٠ ـ ١٩٥٩)، معتمدا النص الإنكليزي، الذي قام بترجمته تومبسون. وفن الأوراتوريو، الذي صيغت به الملحمة موسيقيا، مبني على أصوات منفردة للسوبرانو، والتينور، والباريتون، والباص. والأصوات الثلاثة الأخيرة هي درجات الحنجرة الرجالية، التي استحوذت على مناخ العمل الدرامي، مع الكورس والأوركسترا.

كان مارتينو في عمله يرغب بأن يجعل من الموسيقى ضربا من السحر، يطلق فيه الواقع من أسر محدوديته، ويجعله يلتحق بطلاقة الأسطورة. ولقد حقق شيئا من ذلك. إلا أن اعتماده النص الشعري في الأداء، كوسيط في إيصال الدلالات، حجّم من قدرة الموسيقى في أن تصبح ضربا من السحر كما أراد. وكان على ملحمة (گلگامش) أن تنتظر قرابة عقدين من الزمان لتصبح رغبة مارتينو ممكنة التحقيق، على يد الموسيقي الدنماركي پير نورگورد (مواليد ١٩٣٢). فإذا كان مارتينو الحداثي قد وضع ملحمته وهو في آخر أيامه (١٩٥٥) مع كل لمسة الرومانتيكي التي فيه، كان نورگورد أكثر طليعية ومعرفة في كيفية إحالة الموسيقى إلى ضرب من السحر، حين وضع ملحمته وهو في الأربعين ١٩٧٢ .

كنت عرفت نورگورد ، بعد أن استمعت لسيمفونيته السادسة، وهي تعزف لأول مرة في احتفال (البرومز) هذا العام. ثم طمعني هذا في ملاحقة مجموعة من أغانيه صدرت مؤخرا ، ومعرفة شيء عن حياته ومؤلفاته، حيث وقعت على أوبرا (گلگامش) من بينها. ولأنني لم أعثر عليها في لندن، على رحابة سوق الموسيقى فيها ، استعنت بصديق في كوبنهاگن، لعلها تكون قد صدرت هناك عن دار dacapo الوطنية المحلية. وبهمة العراقي الباحث عن لمسة الدفء في الجذور اتصل بي في اليوم التالي قائلا: الأوبرا صادرة منذ ١٩٩٠ في اسطوانتي CD، وها هي بين يدي، وستصلك بعد أيام . وبعد أيام وجدتني، في غرفتي الموسيقية، أصغي لقراءة نورگورد لقصيدتي المفضلة.

في أوبرا "گلگامش" الجديدة امتص نورگورد رحيق النص الشعري وتركه جانبا. ومع هذا الرحيق في داخله تابع الحدث موزعا إياه على ستة أيام وسبع ليال. إذن نحن مع بناء للأوبرا غير تقليدي، حيث لا فصول ولا مشاهد. ولا خشبة مسرح أيضا ، تجاورها الأوركسترا ويزدحم أمامها الجمهور. بل نحن داخل مستطيل تصطف كراسي الجمهور على جانبين منه. الموسيقيون والمغنون يرتدون زياً للأسطورة واحداً، كي تُمحى الحدود تماما بين الحدث الدرامي والموسيقى المصاحبة. حتى قائد الأوركسترا لا يستقر في موقع ثابت، بل يدور في مدار الإله الشمس مرة في اليوم.

آلات الأوركسترا الموسيقية توزع، هي الأخرى، حسب طبيعة التأثير على مواقع مدينة أوروك، وغابة الأرز، وبطل الطوفان أوتنابشتم. وتنفرد بعض الآلات المتميزة لشخوص بعينهم، مثل آلة الترومبون لثور السماء. ولذلك لسنا أمام نص درامي أُلف موسيقيا ، بل أمام وحدة موسيقية .

درامية، لا تكون القيادة فيها للكلمات، إلا في مقاطع قليلة، الكلمات في معظم العمل تتحول إلى طاقة صوتية. إلى تمائم رمزية، تشبه تمائم السحر.

منذ مطلع الليلة الأولى، ليلة الخليقة (الآلهة - الشياطين - الحيوان - البشر) نطل على أوروك الخالدة وكأنها تطلع من صوت الكورس:

انظر إلى شاماش: الإله الشمس/ إلى الإلهة العظمى/

إلى الشياطين: هامبابا وثور السماء/

إلى الحيوان: الكبش، السمك، الوعل، الثور، السرطان، الأسد، الأفعى

فنحن جميعا سكنة مدينة أوروك.

الصوت هو صوت موسيقى الكلمات، التي تبطن موسيقى الطبيعة البكر، وموسيقى الكائن في مراحله الجنينية، وموسيقى الآلهة في عالمها الغامض المطلق.

في اليوم الثاني نصغي لطلائع الشخصية البالغة الهيمنة:

گلگامش: أنا، أنا. گلگامش، گش، گش بل، گش بل گامش - مش.. ثلثا إله وثلث إنسان..

ولا تكاد تتبين صوت الآلة الموسيقية عن صوت آلة الحنجرة، ومع هذا الخلط تدخل، بمقدار ما تملك من أذن مدربة، عالم الأصوات السحري. تبدأ مع طغيان گلگامش، واستغاثة الناس، ثم خلق أنكيدو، وصراعهما، ثم صداقتهما المثلى. ولعل من أروع المراحل. تلك التي يموت فيها أنكيدو في الليلة السادسة، وينطلق صوت أوتنابشم من داخل گلگامش، من سريرته الباطنة، هادئا: لماذا؟ ليجيب البطل تحت وطأة حيرته:

ألا يتوجب عليَّ الخوف من الموت؟ ألست ميتا شأن أنكيدو؟
صديقي وأخي الأصغر. ندبته أياما ستة وسبع ليال.
وما تركته يدفن قبل أن أبصر الدود يأكل جسده.. .

ومعه نرحل بحثا عن الإجابة، داخل أروع طقس لحني للكورس، يمثل الرحلة المعتمة للمجهول:

العتمة كثيفة، فما من ضوء.
هوّمت فرسخاً والعتمة كثيفة، فما من ضوء .

ثم بعد تهويمات گلگامش يهطل صوت أوتنابشتم، وبتقنية رائعة يختلط، وهو من درجة الباص الخفيضة، مع صوت سوبرانو، وكأنها لون من ألوانه:

ما من وجود أبدي لشيء. هل ابتنيت بيتا فيبقى إلى الأبد؟ وعقدا خالدا؟

وتنتهي الأوبرا بثمرة الملحمة ذاتها ، التي ترد على لسان أوتنابشتم:

كان عليك أن تنتصر على عالمك ببصيرتك وحدها.
تحقق من وجهتك.. ثم اقبض على قدرك، واستيقظ إنسانا جديدا .

هذه قراءة موسيقية رائعة للمؤلف الدنماركي پير نورگورد ، الذي بدأ نجمه يتعالى في أفق الموسيقى الجديدة هذه الأيام. قراءة تضاف إلى مكتبة گلگامش، التي أحيطها برعاية الكائن الممزق - شأن العراق - الباحث عن التماسك والوحدة.

(١١/١٠/٠٢)

كيف نختلف ونحن على اتفاق؟

لمسة القداسة وراء الخلاف الظاهر بين العقائد

الخلاف الذي أحسه عميق الجذور بيني وبين عدد غير قليل من مثقفينا العراقيين لا ينطوي على رغبة شخصية لإثارة معترك يمنح طعماً لحياة لا طعم فيها. على العكس، فالجميع يسعون كما أسعى لاستعادة وطن أفلت من يدنا إلى الهاوية، حاملين فوانيسهم في عتمة كثيفة. ما أحتاجه حقاً هو إضاءة جذر الخلاف، لا الخوض فيه. وهذا ما سأحاوله الآن، مستفيداً من تعقيب الصديق زهير الجزائري على الحلقة الأخيرة من أحاديث (ثياب الإمبراطور)، أو على أفكاري عامة.

إنني أزعم أن أجيال المثقفين العراقيين، في العقود الخمسة أو الستة الأخيرة، عاشت تجربة استثنائية، قد نجد شبيهاً لها هنا وهناك في عصرنا الحديث. ولكن هذا الشبه لن يحجب استثنائيتها. لقد ولدنا ونشأنا ونضجنا، جيلاً بعد جيل، تحت مظلات بجمعها، على اختلاف ألوانها الظاهرة، جوهر النزعة العقائدية، التي تعتمد مبادئ واضحة وثابتة، حتى لو سمحت برياضة الحوار باسم وجهات النظر المختلفة داخلها. لأن التفاصيل في النهاية ليست ذات قيمة. وأنا لا أعتقد أن هذا الزعم لا أساس له. فنحن جميعاً ما زلنا نحيط المرحلة بذراع، ويعرف بعضنا بعضاً. ولا حاجة للسعي المجان لإثبات ذلك.

ما يعكر هذه الأطروحة هو الظن بأنها تنطوي على اتهام أو إدانة. وهذا أمر لا يخطر على مسعى تأملي مطلقاً. فنحن جميعاً داخل التاريخ، وكل ظاهرة هي وليدة أكثر من عامل لا تطاله يد الإنسان ولا حتى إرادته. ولكن مفترق الطرق الذي يفرض خلاف الرأي يكمن، كما أعتقد، في إرادة الوعي لدى المثقف، في الأجيال المتعاقبة: هل هو وليد هذه الظاهرة وثمرتها، أم هو إرادة واعية، قادرة على الحكم على الظاهرة، واتخاذ موقف منها. هل يسعى مسعاها ويعزز من تدفقها واكتساحها، أم يعلو عليها ليتأملها، ويعرف موطن الخطورة فيها، أو موطن الأمان!

هذه الأجيال المتعاقبة لم تفلت من الانتساب لأحزاب العقائد المعروفة. ولعل أخطر مظاهر هذا الانتساب هو الانتساب الطوعي المتحمس، القادر على الالتحام بالعقيدة بصورة كيانية. وأهونها هو الانتساب الإلزامي، الذي عرفه العراقيون في مرحلة سلطة صدام حسين. لأن هذا الانتساب الأخير لا يتعامل مع العقيدة إلا عضلياً، ولا يشغل فيها عقله وقلبه وكل كيانه.

كلنا نعرف سعة مظلة اليسار بين المظلات القومية والدينية. فقد كانت ظلالها تحتضن النسبة الكبرى من مثقفينا. تشعرها بالدفء وتمنحها الأمان النفسي والاجتماعي. ونعرف أيضاً أن مظلة اليسار، والحزب الشيوعي هو عماد هذه المظلة بالتأكيد، لا تبخل على هذا المثقف بمصادر إضافية للمعرفة لها امتداداتها في عموم أوروبا، غير المعرفة الاقتصادية والفلسفية؛ فالأدب والفن والفكر حاضر لديها دائماً.

الجميع يعرف هذا معرفة اليقين، ولكن الذي يخفى عن البصيرة، هو

هذا التلاقح الدفين بين المظلات جميعاً، على اختلاف وجهات نظرها، وعلى امتداد السنين. إذ ثمة تلاقح وراء الأفكار الظاهرة الاختلاق، ووراء وجهات النظر المتعارضة، ووراء ما يحيطهما من محاججة بالعلل والأسباب. هذا التلاقح يتعين في مسحة القداسة واليقين والإطلاق، التي تتشرب الأفكار ووجهات النظر وتحولها إلى عقيدة. ولذا لا تخدع الخلافات الحاسمة بين العقائد عقل المثقف الطليق من أسر العقيدة، لأنه من جهة يرى ظاهراً خادعاً لا مخاطر فيه، فخلافات الرأي قوى تحرك الحياة والإنسان والأفكار. ولكنه يرى جوهراً باطناً يجمع كل هذه العقائد المختلفة المتعارضة في تآلف خطير على الحياة والإنسان والأفكار، لا يعرف معنى للتنوع والاختلاف والتناقض. في مركز التلاقح ذاك يلتقي الشيوعي والقومي والإسلامي (وحتى الحداثي الذي آمن بالحداثة كعقيدة!).

المثقف الذي يولد، وينشأ، وينضج، تحت هذه المظلات المختلفة الظاهر، الموحدة الجوهر، يُبنى عقلياً على مانوية، أو إثنوية صلبة لتفسير الظواهر : الأسود - الأبيض، النور - الظلام، الخير - الشر، اليسار - اليمين، الاشتراكية - الرأسمالية، صديق - عدو، وطني - خائن، مع الحرب - ضد الحرب، آمل - يائس، .. إلى ما لا نهاية.

مع هذه الإثنوية تفقد اللغة كل قواها، ويستحيل الحوار، وتهن قوى العقل.

في السنوات الأخيرة، وبعد انهيار المعسكر الاشتراكي، وعبر المعاناة الدامية للعراقيين، وجد المثقف اليساري إثنويته تتهشم. ولمسة الإضاءة تُدخله مأزقاً جديداً لا يقل إرباكاً عن المأزق الأول. فقد أصبح

على شيء من الانفصام بين كياني: المثقف المبدع، و العقائدي اليساري في داخله. لأن هذا الانفصام لا يخلو من إثنوية مريحة أيضاً، تعيده إلى المجرى الذي ولد ونشأ ونضج فيه.

هذه التركيبة للعقل الإثنوي ستواصل غذا ءها من ذاتها، حتى لو تخلى الشخص عن هذه العقيدة أو تلك. هناك شيوعيون كثر تخلو عن الحزب لسبب من الأسباب، ولكنهم كرسوا كل قواهم العقلية والروحية والجسدية لمحاربته بعد ذلك. لقد أعطوا لمهمتهم هذه لمسة قداسة العقيدة بفعل إثنوية العقل، ظانين أنهم تحرروا من عقال الفكرة الواحدة، والتفسير الواحد للإنسان والطبيعة والتاريخ، دون أن يدركوا أنهم تحولوا من طرف إلى نقيضه، بحكم القانون الإثنوي المسلط على عقولهم كالقدر. فأحدهم لا يستطيع أن يتخيل أن الخروج عن الحزب لا يعني بالضرورة العداء له . تماماً كما يصعب على الحزب أن يتخيل أن الخروج عنه ليس خيانة.

إن الانشقاقات المتواصلة داخل أحزاب عراقنا المضطرب لم تكن وليدة خلافات في الأفكار ووجهات النظر، كما يخدع الظاهر على السطح، بل هي وليدة ارتباك في عملية التلاقح الدفين، العملية التي تعطي للأفكار ووجهات النظر قداستها ووحدانيتها. من هناك تندفع الرغبة للانفصال واعتبار الطرف الآخر عدواً. إنها تشبه تماماً حالة الشيزوفرينيا النفسية. فالإنسان الطبيعي ينطوي على أكثر من كائن مختلف في داخله، ولا ضير من ذلك. بل على العكس، قد يتولد من هذه الحالة غنى استثنائي.. أما إنسان الشيزوفرينيا فينطوي على كائنين ينفي بعضهما الآخر.

إن لمسه القداسة وما ولدت من طبيعة إثنوية تفشت في كل مسام حياتنا الثقافية والسياسية والأدبية، حتى أصبحت الحداثة عقيدة، والنزعة الطليعية عقيدة، وقصيدة النثر عقيدة!

الصديق زهير الجزائري يعترف، بصورة صريحة، بأن خيال الكاتب فيه، وليست عقائدية السياسي، هو الذي ينغص عليه أمله بالخلاص من سلطة صدام حسين، عن طريق الحرب المتوقعة. وكان الأولى لهذا التنغيص ـ كما يعتقد ـ أن يكون من حصة العقائدي السياسي في داخله. إنه لا يستطيع، أو لا يريد، أن يتخيل أن الكاتب والعقائدي واحد، وأن أحدهما لا بد وقد أكل الآخر منذ زمن. لأن اجتماع نقيضين (المبدع والعقائدي) في داخل الإنسان يبدو أشبه بالشيزوفرينيا النفسية، وزهير إنسان سوي. ولا مجال إلا أن نتخيل أن العقائدي فيه يرتدي قناع المبدع بعد أن تآكل هذا الأخير وتلاشى.

المفارقة النفسية عند الكاتب العراقي واردة على كل حال. ففي إحدى روايات زهير الأخيرة قرأت معالجة ممتازة لشخوص (أو رموز) من سلطة البعث العراقية، كشف فيها بعناية الروائي عن الجوانب الإنسانية الطرية داخل كيان المتسلط أو الجلاد. لأن الروائي قادر على رؤية أكثر من ثنائية الأسود والأبيض داخل الكيان الإنساني. ولكنه يعجز عن ذلك حين ينتقل إلى موقع العقائدي. فهو، مثلاً، يراني رغماً عني، متفائلاً، وأتحدث عن مشاعر أمل، وهو الذي ما عرفني إلا متحدثاً عن مشاعر اليأس وهذا موضع حيرة عنده، داخل معادلة الأمل × اليأس. لا يستطيع زهير إلا أن يرى الإنسان منحازاً، تماماً كما يراه داخل معادلات الخير × الشر، اليسار × اليمين، ضد أمريكا × مع أمريكا..

وهذا الميل شبه الغريزي للإثنوية كثيراً ما يعتمد، في اندفاعته، على حجج متوهمة. فأنا في حديثي السابق لم أعقد أملاً شخصياً على شيء بعينه، والجملة التي وردت فيها كلمة مشاعر الأمل هي التالية: "مشاعر الأمل لدى العراقيين معقودة بزوال سلطة الطاغية. ومشاعر اليأس معقودة ببقائه". إن مشاعر الأمل لدى العراقيين لن تتنفس وتعود إلى الحياة إلا بعد زوال هذا الكابوس. وما دام هذا الكابوس قائماً فمشاعر اليأس قائمة.

زهير الجزائري لا يستطيع أن يتخيل أية إشارة لمشاعر الأمل اليوم إلا مرتبطة بالموقف المعادي، الذي يقابل الموقف الرافض لأمريكا وللحرب، حتى لو وردت في سياقٍ تقريري لا موقف فيه، كما جاءت في جملتي السابقة. وهو يستمتع برصد مزيد مما يراه تناقضاً لدي، بين الأمل المفاجئ واليأس المعهود، وبين التحدث باسم العراقيين وتناقض ذلك مع معرفته عن انعزالي عن أي تجمع للعراقيين، "حتى ولو في أمسية شعرية لواحد من أصدقائي."

إن تجاوز قلعة الإثنوية التي أتقنت بناءها العقيدة ليبدو مستحيلاً. فزهير نسي منذ سنوات أن الشعب غير الجماهير، وأن الشعب غير تجمعات العراقيين. إنه اعتاد على الاكتفاء بالوجود الرمزي للشعب بهيئة متظاهرين تؤلبهم الأحزاب. كما اعتاد على الاكتفاء بالتجمع العراقي كتشكيل رمزي للعراق. هذا الاعتياد يمليه العقائدي فيه. أما المبدع الذي يعنى بالإنسان (لا بالأفكار المجردة) فقد يجد في المتظاهرين، وفي التجمعات، رمزاً لا يفي بحاجته، إن لم تكن ظاهرة مستقلة قائمة بذاتها لا شأن لها بالشعوب.

أما بشأن اليأس والعزلة فقد وضعهما زهير، من حيث إدراكه لهما، في موضع أقل شأناً بكثير من موضعهما الحقيقي. ولا أحسب أن العقائدي فيه سيسمح له بالتعامل معهما كمظهرين جليلين. على أني لست اليائس ولا المعتزل. ومن أين لي قوة احتمال وطأة هاتين الفضيلتين؟

إن نقاط الخلاف الأخرى قد لا تبدو أكثر من ثمرة التباسات، نتيجة هذه الطبيعة العقلية في فهم الموقف الإنساني باعتباره تقابلاً بين نقيضين مستقلين عن بعض. بفعل ذلك يولد زهير شخصية فكرية لي متعارضة معي بالكامل. فأنا برأيه أملك يقيناً بكفرة واحدة، الأمر الذي لا يملكه، هو العقائدي.

ومثلما قرأ كلمة الأمل في جملتي، وأضاف عليها من لا وعيه تتمةً تجعلها معقودة بالحرب الأمريكية دون ان أكتب ذلك، أو أفكر به، كذلك يقرأ جملتي الاتهامية: حول القوى التقدمية، والقوى الإسلامية، والقوى العروبية، خارج العراق، التي لم تلتفت إليه ـ للشعب العراقي ساعة من بين ساعات الأعوام الثلاثين، وهو يذبح ويدفن ويُنبش قبره كل يوم.. . هنا لا يلتفت زهير إلى كلمة "خارج العراق" ، بل يلغيها من الجملة، وهو يستشهد بها، لتتاح له حجة المعاتبة: "ولا أدري، كيف يبيح شاعر مثل فوزي لنفسه هذا الحكم القاسي على قوى بدأت بمعارضة النظام بالعمل المسلح ونزفت شهداء وسجناء.. "الخ . وهو يقصد بالتأكيد قوى المعارضة العراقية في الداخل، التي لم ترد في جملتي ولا في نواياي وراء الجملة مطلقاً. بل على العكس تماماً، فقد كنت أدين تلك القوى العالمية، والإسلامية، والعربية خارج العراق، لأنها لم تحتج يوماً، وهي

ترى وتسمع بمذابح العراقيين ومذابح القوى التي كانت تعارض النظام بالعمل المسلح بالداخل وتنزف شهداء وسجناء.. ضمناً.

إن ورود كلمة القوى التقدمية في جملتي الاتهامية هي التي أثارت إثنوية زهير، فاستيقظت في داخله معادلة اليسار - اليمين . ولم يعد مهماً لديه أن يقرأ جملتي كما هي عليه.

في ختام هذا الحديث أحب أن أعيد هواجسي العراقية عليه بخطوط عامة ليرى كم تتوافق مع هواجسه، وهواجس كل عراقي في هذه الساعات المتوترة، وفي أي نقطة تتعارض. فأنا لا أعتقد أن ثمة قوى عراقية في الداخل، أو في الخارج، قادرة على القضاء على دكتاتورية صدام حسين. وأنا لا أعقد أملاً على أية قوة أجنبية أيضاً. فالقوة الأمريكية القادرة على الإطاحة به قد تغير إرادتها أية لحظة، لسبب أجهله. ولكنها قد تذهب بها قدماً فتطيح به. من يعلم؟ حينها سيحق لي، أنا الذي لا أمل له، بأن آمل وأقبل على الحياة. الفارق بيننا، أنا وزهير، يتعين هنا في أنه عارف، عن يقين، بكل النوايا الأمريكية الشريرة. فهو رافض لها عن سابق معرفة. وأنا لا موقف لي منها ومن نواياها، إلا بما يمس مصلحتي، أنا العراقي المستلب الإرادة، والعاري دون حماية تحت سيف جلاد لا يرحم.

هناك فارق جلي بين أن تجد في الرغبة الأمريكية للقضاء على صدام حسين فرصةً نادرة لصالحك. وبين أن تعقد آمالك على النوايا الأمريكية. وهو أمر لا أعتقد أن عراقياً واحداً منشغل به. ولكن العقائدي المنشغل طوال حياته في معترك العداء للمعسكر الرأسمالي، باعتباره نقيض معسكره الاشتراكي، لا يستطيع الا أن يحكم الرابط بين

رغبة العراقي للخلاص وبين التعامل مع القوى الإمبريالية. إن من لا إيمان له بالمعسكر الاشتراكي غير ملزم بالعداء للمعسكر الرأسمالي. وعليك أن يتعامل بطلاقة عقل مع حياته، ومصيره، ومصالحه.

ولكن "زهير" يحس أن شخصين يتصارعان في داخله، بين رغبة الخلاص من كابوس صدام، والخوف من كابوس الحرب. وهو إحساس بالتمزق يتلبس كل عراقي وهو بي بالمقدار ذاته. ولم يعتبرني زهير يقينياً بفكرة واحدة، و عاقداً الأمل على القوى الرأسمالية الأمريكية إلا بسبب موقفي الاتهامي لـ "القوى التقدمية المحبة للسلام". بالرغم من معرفته الحقة، وراء حدود الإثنوية العقائدية، بأني ممزق مثل كل عراقي، ولا أملك أن أعقد الأمل على أية قوى، لا بسبب عدائي العقائدي لهذه القوى، بل بسبب جهلي بحركة مصالحها. وإذا ما تحركت مصالحها باتجاه دوام سلطة الدكتاتور، فسأحزن ويتملكني اليأس، وسأحتج عليها وأكترث، وهذا أضعف ما أملكه من أسلحة. ولكنني سأفرح بالتأكيد إذا ما حققت وعدها. هذا الوعد الذي لا أملك الحق بتكذيبه ورفضه مسبقاً.

في جملته الأخيرة، ينصحني الصديق زهير الجزائري: "بودي يا صديقي فوزي أن تنزع ثياب الإمبراطور الواهم الموهم.. ."

هنا، أحب أن أذكره بأن كل مغزى حكاية ثياب الإمبراطور يكمن في أنها ليست ثياباً كي تُلبس أو تُنزع، بل هي وهم عقده محتالان بعيون الجمهور فصار يرى ما لا وجود له!

١٨/١٠/٠٢

دمشق، والطريق إلى عمان

الطريق من دمشق إلى عمان قد لا تتجاوز الساعات الثلاث. ولذا صرت أقطعها في كل مرة أزور فيها دمشق. ودمشق أزورها كل عام زيارتيْ ربيعٍ وخريف، أصبّر فيها القلب على عزلة لندن، وأريح العقل الموتور بفعل زمن متسارع أقحمتُ فيه عنوةً. في دمشق أصحب معي مسبحتي، وأطلق الزمن من أسلاكه المتوترة، لأنعم من جديد بجريانه الكسول البطيء. حيث لا محفزات ولا أهداف. وفي دمشق أرعى بستانا لمحبات كثيرة، لعل أولاها محبة دمشق، التي تطلع عليّ عارية بعد منتصف الليل. فهي غير دمشق النهار. دمشق التاريخ تتلاشى تحت وطأة الضجيج، والتلوث، والسيارات، والشمس في النهار، وفي الليل تتعرى من كل ذلك. تطلع أنثى على درجة عالية من الخفر، والدعة، والهمس، والرقة، ونعومة البشرة، ودفء الاحتضان، حتى لتبدو أُختا، وأما، وحبيبة في آن. على أنها تنفرد بخصيصتين ما رأيتهما ملتحمتين في مدينة من قبل التحامهما فيها، سحر الإضاءة ونعمة الأمان. فعليك أن تأمن أولا لكي تقطع الليل من منتصفه إلى فجر النهار التالي، في خطوات رحيل داخلي يتحول البصر فيه إلى بصيرة، والحواس الأخرى إلى نجات تتقرى ما وراء الظاهر من ملموس، ومسموع، ومشموم،

ومُذاق. والذي يفتح الطريق في تقريبها إلى ما وراء الظاهر هو الإضاءة الشاحبة، التي تعطي معنى لأوهى خيط عنكبوت موصل بين معلوم ومجهول. إضاءة قاسيون فوق أرضية ملايين اللآلئ فيها تُعنى بتصفية الخيال، من أجل تجليات العتمة المطلقة، عتمة السماوات التي لا تشوبها شوائب. وهنا تجنح الروح إلى المستقبل المفتوح. أما إضاءة الدروب والأزقة القديمة فتحت أرضية كيفية لا كمية، حيث لا سعة ولا امتداد. تجعل المخيلة غائمة، لأنها تُعنى بالتشظية والتلاشي، بفعل الدراما الخفية للظل والضوء. وهنا تجنح الروح إلى الماضي، الذي لا يضاهيه المستقبل انفتاحا.

الإضاءة والأمان في ليل دمشق أثمن هدية تنعم بها روح المغترب المفتقد لإضاءة وأمان بغداد البعيدة. تحت سحر الإضاءة والظل في زقاق الماضي أمسك بيد ظلي، وأغني:

إن كنتَ فتىً مثلي
فلنقتسم الأسمالْ،
ولتقحمْ خطوك قبلي
في هذا الدرب الضالْ،
ولنتشرد

٢

الطريق من دمشق إلى عمان قد لا تتجاوز الساعات الثلاث. ولذا صرت أقطعها في كل مرة أزور فيها دمشق. وعمان تأسرني إضاءتها الليلية ولكن عن بعد. فهي تكتفي بالكشف عن التضاريس الظاهرة،

وما من باطن فيها. وفي النهارات تستغرقني الوجوه العراقية بين الوجوه. وتفتنني الوحدة الباكية بين المنتظرين: على باب الأمم المتحدة، أو على رصيف لبيع علب السكائر، أو باب جريدة لبيع المقالات والقصائد. كل وجه قبضة محكمة لليأس.

الطريق من دمشق إلى عمان تجاوزت هذه المرة الساعات الثلاث. كان وجداني خاليا تماما من أي استعداد لانتظار أية مفاجأة. فالطريق إلى عمان يسيرة، والأردنيون ألفوا وجه العراقي حتى صار منهم. وجوازي بريطاني، على كل حال. إلا أن رجل التأشيرة الشاب، من وراء الحاجز الزجاجي أشار لي بأن اتجه إلى اليسار. كنت أحسبه يشير إلى الفتحة المجاورة، فجعلت الدنانير العشر بين أصابعي، إلا أنني اكتشفت بابا مفتوحا، ورجلا يغطي لا مبالاته الباردة بوشاح خفيف من الاحتقار، مطعم ببعض الكركم الأصفر، الذي يشي بسوء النية. رأيته يشير لي أن أدخل، وأن أتبعه. في غرفته أشار لي كمن يقبض على محتال، متلبس بجريمة بأن أجلس. رائحة المقاعد تشبه صفرة الكركم. جلست وأنا أحاول جاهدا أن أنصرف إلى قلبي الذي أخذه الوجيب، وجيب الخائف. سألني بعد صمت مقصود ما الذي أهدف من زيارتي عمان كل عام. تريد لهجته أن تقول: ماذا وراء زيارتك من خبايا ومقاصد؟ أجبته من حنجرة شعرتها وكأنها لواحد إلى جواري: "أحب عمان، ولي فيها أصدقاء كثيرون." أخفيت إجابة أكثر جاهزية خشية أن يفهمها خطأ، "جئت أبحث عن أمي بين المتسولات، وآكل تشريب باجلة صباحا في مطعم العزائم." نظر لي نظرة ارتياب مفتعل ومقصود: "هل لك أية علاقة بالمعارضة العراقية؟" قلت له: "لا طبعا، فأنا رجل لا شأن له بالسياسة"، قال: "هل

دفعت البدل النقدي؟" قلت له: " من زمن بعيد." قلتها كمن شرق بماء.
فأنا رجل قليل الخبرة، كثير الوسواس. والسؤال أدار رأسي، وجفلني عن
مكاني الذي ببعد، بالتأكيد، مئات الأميال عن أي غرفة تحقيق في دائرة
أمن أو استخبارات عراقية. حدقت في عينيه فوجدته أردنيا مئة بالمئة!

قال، بعد أن أوضحت له بأنني كاتب وشاعر: "ما الذي جئت لتقرأ
في مهرجان جرش؟" تبين ذلك من تأشيرة سابقة. قلت له: "جئت لأقرأ
شعراً، شأني شأن العشرات من الشعراء العرب." الخطوط الكركمية حول
عينيه قالت لي: أنت عراقي لا تنس ذلك . ثم نطق لسانه: "هل لك
علاقة بأي شكل مع المعارضة العراقية في لندن؟" كان هو الآخر محاصرا
بالسؤال، فأخذت المبادرة ورفعت صوتي قليلا. قلت له بأني شاعر
معروف، وله أن يرفع التلفون ويتصل بأية مؤسسة ثقافية في عمان
ويسأل. كانت إجابتي، حتى في تحديها الواهي هذا، إجابة عراقي
مذعور. كان الأولى أن أصرخ فيه: أنا بريطاني، وهذا جوازي بين يديك،
ولك أن تتصل بسفارتي. آسف. لا إجابة لدي . لو قلت له هذا لرأيته
محاصرا كفأر. ولكن من أين لي لسان كهذا، ولساني تربى ثلاثين عاما
على هذا الوجيب؟

أشار أن انتظر في الخارج. كان سائق السيارة ينتظرني مع حقيبتي
قائلا باعتذار: "الركاب لا يحتملون مزيدا من الانتظار." تركها إلى
جواري وانصرف. اجتاحتني غبطة الاستثنائي، وتذكرت أبياتاً للعراقي
المرحوم بلند الحيدري:

.. هذا أنا ملقىً، هناك حقيبتان

ويدٌ تلوّح في رصيف لا يعود إلى مكان..

كنت أرغب في العودة إلى غرفة المحقق الأمني العراقي، عفوا الأردني، وأقول له: أرجوك اعطني جوازي البريطاني، فأنا لا أريد دخول الأردن. أريد العودة إلى دمشق.

هناك أكثر من حجارة حانية تحت الإضاءة الشاحبة، في أكثر من زقاق بانتظاري. وإذا كانت المشكلة مع أمي المتسولة على رصيف الساحة الهاشمية، فسأجد مثيلات لها بلا تسول في السيدة زينب. هناك سآخذهن جميعا ورائي وأقرأ على قلوبهن داخل البلورة المعطرة: "وقفت سفينة المساكين على ساحل جودك وكرمك"

كنت أرغب بفعل أشياء كثيرة، إلا أن موظف التأشيرات أعلن اسمي وأعطاني الجواز بالتأشيرة.

في عمان قالت لي شلة الواقفين على مفترق الطرق، بعد أن رويت لهم ما حدث: أنت محظوظ. فحامل جواز أمريكي قبلك أشبعوه ركلا، لأنه أجابهم باطمئنان من يتحدث خارج حدود سطوة صدام حسين: "إنني خارج العراق لأنني أحتقر صدام حسين." دفعه رجل الأمن، بينما ركله الثاني بحذائه من الخلف. الرجل الجري، رجع إلى دمشق، وذهب إلى سفارته الأمريكية، وقدم شكوى إلى السفير مباشرة.

أي جرأة تحلى بها، وهو يلجأ إلى قوة أجنبية لتحميه من شراسة أبناء جلدته؟

صحيح أنني أكلت تشريب باجلة الصباح، وفي المساء أكلت التمن واليابسة. وصحيح أنني شربت خمرة اللقاء مع يتامى السنوات اللقيطة، وضحكنا وكتمنا دمعة الفقدان. وصحيح أنني ملكت لحظات لتأمل

عمان عن بعد، في إضاءتها وتضاريسها.. إلا أنني ما أحببت الإقامة في مدينة، لم يستجوبني رجل أمن الحدود فيها بوجه أردني، بل بقناع رجل أمن عراقي؟!

(٢٠٠٢/١١/٢٩)

فصائل المعارضة وفصائل المثقفين

أحد المسؤولين في معارضة المؤتمر الوطني جلس في مكتب رئيس التحرير. التفت إليّ وسألني بكياسة: حضرتك تكتب في جريدة المؤتمر؟ أجبته بتواضع: نعم أكتب، أنا فوزي كريم . الجملة الأخيرة جاءت استدراكاً لأتجنب التعريف بنفسي. كنت أتوقع أن رجلاً مسؤولا في قيادة المؤتمر لا بد وقد احتفظ بزوادة جانبية يجمع فيها بضع معلومات عن شعراء بلاده، الذين يشاركونه منفاه الحزين. ويتحملون مثله عبء معارضة الدكتاتور، ويقتسمون معه مسؤولية ما يحدث. على أنهم سبقوه، كما يسبق الشعراء السياسيين عادة، في التعبير عن تلك الطيات الخفية لآلام الناس وآمالهم. سبقوه في النبوءة، والتحدي، والتبشير، قبل أن يتعرف المنفي على أي وجه للمعارضة غير وجوههم.

كنت أتوقع شيئا من الاستجابة، تنطوي على شيء من ذلك. إلا أن المسؤول في معارضة المؤتمر الوطني، استقبل اسمي داخل إجابتي كما يستقبل عنوان وظيفة دنيا: كاتب صادرة، أو موظف استعلامات. أحد الحاضرين تحرج مما حسبه تجاهلا. فتطفل قائلا للمسؤول، وهو يشير إليّ: الأستاذ الشاعر فوزي كريم. أراد أن يعبئ صوته بنبرة اعتزاز، ولكنها سرعان ما تحولت إلى نبرة خائبة.

لا أعرف لِمَ تذكرت لحظتها عددا من مسؤولي سلطة البعث. من محمد سعيد الصحاف حتى طارق عزيز. كانوا يعرفون الشعراء العراقيين بصورة شخصية، ويفرقون بحذر بين المنتصر لهم، والحليف معهم، والمحايد إزاءهم، والعدو.

بدأت حديثي هذا بهذا الحادث من أجل أن يكون له مذاق شخصي. فنحن في هذا المعترك لا نجد فاصلا بين مصير البلد الذي ننتمي اليه، ومصائرنا ككائنات حية. نحن لسنا في حلبة معترك العقائد واختلاف المواقف. بل في معترك أن نحيا بشرا، أو نطوى بالنسيان والموت.

منذ أواخر السبعينيات، ومع نذر الولادة المشؤومة لشبح الدكتاتور، كان الشعراء والفنانون والمثقفون عامة هم طليعة من اجتاز الحدود، احتجاجا تحت ظل المخاطر. كل واحد منهم حكاية تروى، في استغفال الزمن من أجل لحظة هرب إلى حيث لا يعرف.

كانوا رواد روح المعارضة العراقية، والمنابع الحية للمقاومة، والذاكرة المزهرة في منافي النسيان.

المؤسف أن مجرى المعارضة للدكتاتور عاد مع الأيام مجرى مقتصرا على تيار الساسة، أو تيارات السياسيين. تماما كما حدث مع انقلابات البعث، حين اعتلى السياسيون منصة الخطابة، وأمسكوا بالسلاح والمال، وأحالوا المثقفين، الذين كانوا طليعة لهم، إلى مرتزقة.

فصائل المعارضة جميعا لا شأن لها بفصائل المثقفين والمبدعين. إنها لا تتجاهلهم فقط، بل تجهلهم. إنها تعرف بالغريزة أن المثقف والمبدع مبتلى بالمكابرة، ولا يحسن المناورة، ويفضل عليها المكاشفة والاحتجاج. وهي بدل أن تحتضنه، أو تتحاضن معه، وتوحد مكاشفته مع مناورتها، تحاول، بعد الإمساك بالمال والموقع، أن تبعده، أو تحيله إلى مرتزق.

الأكثر خطورة أن يضطر المثقفون، بدافع الإحساس بضرورة القيام بدور، إلى التكتل جانبا، وإلى الحرص على ممارسة فاعلية مستقلة عن محاور المعارضين السياسيين. لأن هذا الأمر سيحول معارضتهم إلى مهمة مزدوجة: معارضة الدكتاتور، ومعارضة المعارضة السياسية.

شيء من هذا حادث على كل حال. والتطرف في التغافل عن هذه الحقيقة من قبل سياسيي المعارضة لا يدعو للأسف وحده، بل للحرج. وكأن معارضة الدكتاتور لم تعد مهمة مشتركة (لبناء) عراق آخر غير عراق الحزب القائد، بل مهمة شطارة فردية (لهدم) النظام القائم فقط.

إن عراقاً قادماً لن يبنى إلا بعقول العمال المهرة. ودون هؤلاء العمال المهرة ستبدو المعارضة السياسية مناورة تحاك بالسر!

(٦/١٢/٠٢)

عن ادوارد سعيد ، ومكية ، واستغاثة القتيل

الكاتب الفلسطيني ـ الأمريكي إدوارد سعيد يعاود مهاجمة الكاتب العراقي كنعان مكية. كل منهما عاش سنوات عمره المنفي في أمريكا. وكل منهما شُغل بقضيته المركزية: الوطن المستلب، الأول من قبل إسرائيل، التي تعينها الولايات المتحدة، والثاني من قبل صدام حسين، الذي أعانته الولايات المتحدة يوما، وها هي تتوعده، وتعد بالقضاء عليه.

الفلسطيني ـ الأمريكي في أدوارد سعيد يواجه خيوط قضيته التي امتدت عقودا طويلة فيجدها، على شدة التباسها، تنتهي في طرف منها بيد الولايات المتحدة. وهذه الأخيرة لا تريد بضرية مقتدر أن تحسم الأمر بصورة عادلة. والعراقي في كنعان مكية يواجه خيط قضيته، الذي لا التباس فيه، فيجده في طرف منه بيد الولايات المتحدة. وهذه الأخيرة تريد لسبب من الأسباب أن تحسم الأمر معه، في إزالته.

إن كل ما فعله أدوارد سعيد من أجل وطنه وشعبه كان رائعا، لا في مواجهة القوى المحتلة، والقوى المساندة لها فقط، بل في مواجهة السلطة الفلسطينية أيضا. ولأن فلسطين بعدٌ أساس من الأبعاد القومية، فإن فاعليته ظلت محتضنة من قبل الإعلام والثقافة العربيين، على

الدوام. حتى أن أحد كتبه النقدية والنظرية بالشأن الموسيقي، الذي تصعب قراءته بالإنكليزية، وتستحيل ترجمته إلى العربية، قد عُرض في مجلة "الكرمل" باحتفاء، من قبل كاتب لا يحسن معرفة معنى السوناتا!

كذلك كان رائعا ما فعله كنعان مكية من أجل وطنه العراق وشعبه العراقي، لا في مواجهة "جمهورية الخوف" وسلطة الدكتاتور فقط، بل في مواجهة ردود الأفعال المعارضة لهذه السلطة والميل المتأصل للعنف. ولكن الضحية هنا، وهم العراقيون هذه المرة، لا تشكل بعدا أساسا من الأبعاد القومية. ولم تشغل ضمير الإعلام والثقافة العربيين ولو لحظة واحدة. ولذلك لم تكن فاعليتُه محتضَنةً من قبلهما. بل على العكس، ظلت عرضةً لاستنكارهما، وهجومهما حتى اليوم. حتى أن مترجم كتابه "القسوة والصمت" إلى العربية فضل أن يبقي اسمه مجهولا.

إن عدو إدوارد سعيد عدو مشترك، بينه وبين المثقفين العرب، وبينه وبين الإعلام العربي. ولكن عدو كنعان مكية ليس كذلك، لأن صدام حسين اشترى، بكرم يذكر له، نسبةً كبرى من الثقافة العربية والإعلام العربي، حتى انفرد الشعب العراقي بالعداوة وحده، وتحت ظل ثقيل من العصبية الإعلامية والانشغال الثقافي عما هو قومي وأممي وإنساني.

إدوارد سعيد دخل بهو الثقافة الغربية بنباهة المقتدر، كذلك فعل كنعان مكية. على أن الأول دخله بدراسة "كونراد" الروائي، في حين دخله الثاني بدراسة "جمهورية الخوف". وإذ توسع الأول بارتياد عالم الاستشراق، وفتح النار على المستشرقين، توغل الثاني بالعذاب العراقي وفتح النار على صمت المثقفين العرب. لقد أرضى الأول غرورَ المثقف العربي الإيهامي، وحقن بالمخدر نفس المثقف الجريحة، عن طريق الطعن

بنوايا الاستشراق، وليد الغرب الممتلئ بالنوايا الشيطانية. في حين ألقى الثاني الضوءَ الجارح على ضمير هذا المثقف المستور داخل العتمة.

ما أوسع قضية أدوارد سعيد، التي التبس فيها النظري بالعملي، كما التبس الوطني بالقومي بالعالمي. وما أصغر قضية كنعان مكية، التي لا التباس فيها، إلا التباس أنها عراقية. ولا يمكن أن يدرك مقدار الأذى فيها إلا عراقي مثله.

ادوارد سعيد يحاول جاهدا أن يعالج أطماعَ الإمبريالية الأمريكية في أزمة العراق الحالية. ويتأمل معالجة كنعان مكية من هذه الزاوية فيأخذه الغيظ، لأن الأخير لا يكاد يرى إلا أزمة العراقيين في مسلخ نظام صدام حسين، وإلا جثث القتلى، وخرائب القرى والمدن المهجورة. لأن الأخير أجّل عداواته الأخرى إلى حين. أجل كل عداواته في حربه القومية، وحربه الأممية، والإنسانية إلى حين، وتفرغ لا للحرب مع صدام حسين فقط، بل للاستغاثة والنجدة. إنه لم يعد يملك حتى طاقة المقاومة السلبية في الصمت، وتجرع الأذى والضيم.

لو يقرأ إدوارد سعيد كلامي هذا، وهو الذي يعترف بأن صدام حسين دكتاتور، ترى هل سيضطر للمفاضلة بين العراقيين والفلسطينيين في الاندفاعة باتجاه المقاومة؟

إنني أكبر ذائقته الموسيقية، وهو يعرف بأن الموهبة الموسيقية دون إحاطتها بالحماس قد تضعف وتتلاشى. كذلك موهبة العراقي على المقاومة، فقد طالما أضعفها ولاشاها الصمت والإهمال المحيط، عربيا، إسلاميا، وعالميا. على أن آيات مقاومته خرساء، مطمورة مع مليوني جثة مستخصب الأرض، وأربعة ملايين منفي، يحسنون لغات الأرض جميعا.

كنعان مكية يعرف، مثلي ومثل كل عراقي، ضحايا القسوة وضحايا الصمت. يعرفهم وحده، ولا يشاركه في هذه المعرفة أحد من العرب والمسلمين. بل لا يواجه منهم إلا العداوة وسوء الظن. حتى أن شعراء وكتابا عراقيين على مفترق طرق من أمرهم: أيعلنون صرخة الضحية فيخسرون احتضان الإعلام العربي، وهو ضارب السيطرة والسطوة على الثقافة العربية. أم يخفون الصرخة المذعورة، ويظهرون بدلها قناع المناضل الخالد، من أجل سيادة الوطن وكرامة الأمة ضد أطماع الإمبريالية، فيكسبون بذلك مواقع النجوم!

إن غيظ إدوارد سعيد من ظاهرة العراقي كنعان مكية، الذي قطع الخيوط مع العرب، وراح يأمل الكثير من المبادرة الأمريكية، جعله يخلع لباس المثقف الغربي عنه، ويتخلى عن قاموسه النقدي، ويخرج إلينا مثقفا عربيا بأردأ الأسلحة النقدية المألوفة لدينا. المثقف (العربي) في إدوارد سعيد يستيقظ على حساب المثقف (الغربي) فيه، ليبدأ حملة في تطعيم لغته بما لم تألفه لغة النقد الإنكليزي من قبل. على أنه، تداركا للأمر، أعد مقالته "معلومات مضللة عن العراق" بصورة خاصة لتليق بالذائقة الثقافية العربية. فقد نشرها في "الأهرام" التي تصدر بالإنكليزية، ثم في "الحياة" عن ترجمة غاية في الرداءة.

المعلومات التي يراها إدوارد سعيد مضللة في نشاط كنعان مكية هي أن الأخير وصف حكم صدام حسين بقدر كبير من الترويع والإثارة في كتابه جمهورية الخوف، مثلا، أو أنه لا يشير إطلاقا إلى حقيقة أن الولايات المتحدة مصممة على إسقاط النظام العراقي بسبب احتياطي البلاد النفطي، ولأن العراق عدو لإسرائيل، أو أنه هاجم المثقفين العرب،

الذين اتهمهم بالانتهازية واللاأخلاقية، لأنهم إما أشادوا بأنظمة عربية مختلفة وإما لزموا الصمت على الانتهاكات التي تقترفها الحكومات المختلفة ضد شعوبها.

أحيانا يبدو المثقف العربي والحقيقة قطبين متعارضين. إن أي عراقي، داخل جمهورية الخوف أو في المنفى، يعرف أن ما تحدث عنه مكية في كتابه "جمهورية الخوف" لا يشكل إلا ظلا من ظلال الرعب، التي عرفها العراقيون تحت دكتاتورية بسمارك العرب، والتسمية لأحد المثقفين الثوريين! . وإن أي عراقي لا يجهل أن القوى الغربية طامعة بنفط الوطن، ولكن المشكلة أن إدوارد سعيد، والمثقف العربي عامة، لا يحب أن يعرف بأن العراقي لا يملك من وطنه ومن نفط وطنه شروى نقير. لقد عشنا وهربنا، نحن المثقفين، دون أن نشعر يوما واحدا بأننا ننتمي لدولة نفطية. حتى أن كتابات ثوريينا امتلأت هجاء للدول النفطية المجاورة، بسبب غفلتها عن واقع أن العراق يفوق دول الخليج ثروة. إلا إنها ثروة تظهر سرا من باطن الأرض لتذهب سرا إلى مصارف الغرب بحسابات خاصة. أو تتحول إلى أسلحة حماية، وشراء مرتزقة لصدام حسين وعائلته.

لقد كلف نفط العراق العراقيين مليوني قتيل، وأربعة ملايين منفي وفساد أجيال، وخراب زرع وضرع. ولذا لا يملك العراقي أن يرى أن كل هذا الذي حصل له هو حصاد تاريخ، قد لا يعني شيئا لدى إدوارد سعيد، وأنه لا يملك قناعة من يجد كل هذه الخسائر ضريبة مشرفة يدفعها عن طيب خاطر من أجل نفط الوطن ومن أجل فلسطين. وهو العارف بأن حرص صدام على النفط وعلى فلسطين ليس إلا أكذوبة مقرفة.

أما بشأن المثقفين العرب الذين هاجمهم مكية، فقد أفسد أدوارد سعيد مادتهم بالتعميم والإطلاق، لأن مكية إنما اتهم صمتهم على مجازر نظام صدام حسين، لا على فساد الأنظمة العربية، وانتفاعهم من كرمه في شراء الذمم، ولكن المثقف العربي في إدوارد سعيد لا يتردد في التضحية بالحقيقة من أجل طعن الخصم. خاصة إذا كان الخصم عراقيا، لا يريد أن يفكر بالتضحية، بآخر رمق للاستغاثة، بعد أن خسر كل شيء.

(٠٢/١٢/١٣)

ويحق لي أن أحلم !

كيف نتمثل رجل الدولة في عراقنا المقبل؟ نحن الذين قطعنا الشوط الطويل في منفى الحضارة الغربية. نحن الذين تعلمنا لغات عديدة، ورأينا العجائب من مفاتن الحرية، وجلال القانون، وقداسة الإنسان، وحرمة المسؤولية، وعفة النفس، وعفو الاقتدار، ووطأة الذنب لحظة الخطأ، ومسرات الغفران، والذعر من شوائب الماضي، والاعتذار عن قصور الكفاءة. هل ترى رأينا كل الذي رأينا كمن يقرأ حكاية خيالية في كتاب، أو كمن يشاهد صوراً متحركة على شاشة فضية؟

لقد علمتنا وطأة الطغيان الطويلة أن نحلم كثيراً، ونبالغ في الحلم، ولعل الحلم وليد انطفاء الآمال وثمرة اليأس. والآن، في هذا الهزيع المزبد الأخير من الليل، كأننا نستيقظ لنرى أنفسنا على أرض الواقع من جديد، حتى ليسأل أحدنا الآخر: هل سيحق لنا أن نحيا ونستعيد سوية الإنسان الذي غادرنا من سنين؟ هل سيكون لنا أسلاف كما للناس، وأحفاد كما للناس؟

هل ستصبح الدولة مؤسسةً، والمؤسسةُ مختبرَ كفاءات؟ أعني كفاءات علم واختصاص، لا كفاءات مناورة واحتيال؟ وهل سأنحني إجلالاً لرئيسي المقبل، وأنا أتأمل جبهته المفضضة بالمسؤولية، والمزدانة بإكليل الحكمة؟

وهل سأصفق، أنا الشاعر، لوزير ثقافتي الذي يحسن الحديث، في ندوة تلفزيونية، عن حيرة گلگامش، والتباس الإنسان على الإنسان عند التوحيدي؟ أو لوزير تربيتي وهو يحتفل بمناسبة صدور كتابه الحادي والعشرين عن مستقبل الثقافة في العراق ؟ أو لوزيرة الإعمار زها محمد حديد، أو لإنسان من الفصيلة ذاتها يحل محلها، مضاء بهيبة العارف؟

هل سيعود رجل الدين بعمامته الوقورة إلى حوزته مرجعاً فقهياً؟ وذو العقال إلى ركن مضيفه المعهود؟ وهل ستعود المدينة مدينة، والريف ريفاً، والبادية لمن يرتضيها؟ وهل سيعود رزوقي المخمور يقطع دجلة على هواه؟

ليل الشتاء الطويل الذي قطعناه حفاة يمنحني الحق في أن أحلم، لا برجل الدولة القادم وحده، ولا بجواز سفر أباهي به جوازي البريطاني، بل أحلم بأن لا أعود، أنا الشاعر، إلى أغنيتي المألوفة:

وأقول: عراقيون
بيتٌ من طين في منحدرِ السيل
ونَذرٌ للزمن الملعون
وأقول: لقاحٌ نحن ليوم لن يأتي
تطرحنا ريحٌ في سورات البحر
وريحٌ في حافات اللاأدري!
من يجمعنا،
ويلم شتات مضاجعنا
في نومٍ آمن؟

(٢٠/١٢/٢٠٠٢)

مقترح لخيار أخير

خيرات العراق، التي كانت مركز جاذبية لأطماع العالم الخارجي، أصبحت منذ منتصف القرن العشرين حتى اليوم أسلحة إبادة لكل ما هو حي فيه، بدءاً بالإنسان، ومروراً ببنى الثقافة والأعراف والموروث، حتى أصغر بنية في المعمار الاجتماعي. أسلحة الإبادة تحتاج إلى من يشحذها كل حين لكي تظل قاطعة وحاسمة. المفاهيم والشعارات المعبأة بالحماس، والتي أعطاها المثقفون مواقعها الوطنية، والقومية، والأممية، وأحاطوها بهالة القداسة المنزلة من سماء الأوهام - وحاشا أن تكون طالعة من الواقع الأرضي - كانت جاهزة أبدا لشحذ هذه الأسلحة.

حين جاءت سلطة البعث عام ٦٨ رأيناها ملفعة براية الألوان الثلاثة: الوطنية، والقومية، والأممية. معززة بجبهة وطنية متماسكة. متوجة بتأميم النفط. قصائد ومقالات وكتب تلك المرحلة ما زالت ندية الحبر تشهد على ذلك. وما من أحد يجرؤ على القول بأن ما هو حاضر لا يعدو مفاهيم وشعارات يتقاسمها المثقفون المسيسون بحرارة إيمان، والغائب الوحيد هو الإنسان.

بفعل ثقافة المسيس هذه، أو سياسة المثقف، تحولت خيرات العراق وإنسان العراق إلى مفاهيم وشعارات. وأصبح المجرى الطبيعي للأشياء

مقلوبا. وبدل أن تُكرس كل الأشياء لخدمة هذا الإنسان على الأرض، صار الإنسان يُقدم قربانا رخيصا على مذبح المفاهيم والشعارات. وتحت راية أطماع العالم الرأسمالي الخارجي، التي شارك في رفعها جميع المثقفين المسيسين، بدأت المفاهيم أطوار تحولها المسخي، فالوطنية تجسّدت في هيئة قوى أمن واستخبارات مريعة، وفي هيئة خوذ حرب مثقوبة في الخنادق، على امتداد جبهات مهجورة لحرب لا نهاية لها، في الشمال والشرق والجنوب، وحدود لا تنقطع خطوات الهاربين عبرها، كما تجسدت القومية في هيئة مهرج لا يكف عن النشيد "شدوا الحزام على البطون"، فيما يحلم الأممي بإضراب عمال الحديد في نيويورك. تُعطل فيه قوى الشيعة عن المساهمة كل يوم، ويُقتل الأكراد، وتطفأ شموع الأقليات القومية والدينية. والقصائد والمقالات والكتب تتدفق كل يوم أيضا، لشحذ الأسلحة (وما كانت غير نفط ومياه ونخيل) ضد أطماع العدو الخارجي المتربصة.

اليوم، ولا نعرف ما سيحدث غدا، نتوسل بذوي الوعي الثقافي المسيس، أو السياسي المثقف، أن يتركوا فرصة واحدة لنا، بعد أن خبرنا التعامل الإلزامي مع حماة الوطنية والقومية والأممية، بأن نجرب التعامل مع أطماع العالم الخارجي، لعلّ هذه الأطماع تكتفي بنصف خيراتنا، وتترك لنا الإنسان حيا، لا جثة مشوهة على مذبح مفاهيمها وشعاراتها الخالدة!

(٢/١/٠٣)

حكاية القسط الأصغر

معظم الذين خرجوا من العراق بعد حرب الخليج الثانية انضموا إلى المعارضة العراقية الواسعة في الخارج. القسط الأكبر كان معارضا في الداخل لنظام الدكتاتور، معارضة فاعلة أو صامتة. القسط الأصغر كان، على العكس، مساهما في شبكة الجريمة عن إرادة، أو عن غير إرادة. هذا القسط الأصغر هو الذي يشغل بال العراقيين في الخارج، كلما اضطرب مسار الأحداث واشتد الجدل ونشط الخلاف. فلقد اعتاد هؤلاء على استثارة الريبة بتنظيمات المعارضة، ما إن اطمأن واحدهم إلى الإقامة في منفاه. إنه ينتظر، إن لم يكن يملك الجرأة الكافية، أية مبادرة من المنفي قبله للشكوى من المعارضين حتى يكمل المشوار بالتشكيك والطعن. حدث ذلك معي أكثر من مرة. وأكثر من مرة أقمع هذه المبادرة غير المريحة من صاحبي الخارج تواً، بعد أن ضعفت السطوة وانحسرت إرادة البعث، وأفلس بيت المال. أقول له: أنت لا تملك إلا حق الدفاع عن النفس وتبرئة الذمة. أما خطايا المعارضين فنحن كفيلون بها!

إلا أن هذا القسط الأصغر أكثر خبرة في المعترك السياسي، فقد وفد إلى المعارضين في المنفى الساكن، بكامل عدة المحارب، التي تجهز بها في سنوات المساهمة في شبكة الإذلال. إنه سرعان ما دخل حلبة

المعارضة محاربا على جبهتين، الأولى: مهاجمة صدام حسين، التي لم تعد ذات فائدة أو معنى، والثانية: مهاجمة المعارضة والطعن بها، وهي فاعلية تنطوي على أكثر من معنى.

نعم، نحن نرى أن هذه المعارضة لا توحدها قضية مركزية، كفيلة بطمر المطامح والمصالح الفردية. ونحن نراها ناشطة عضلياً في إبعاد المواهب والعقول المبدعة، التي لا عهد لها بالنشاط العضلي، ونحن نرى منها الكثير الكثير الذي يوحي بالشؤم والنذير. ولكن هذه الرؤية تخرج من الرائي الضحية، إلى المشهد الضحية. ولذلك فهي موقف نقدي داخل دائرة المعارضين من أجل عناصر أكثر كفاءة. وليست متنفساً لموقف معاد كامن.

اليوم تتجاوز مواقف التشكيك والطعن إلى مرحلة أكثر خطورة، لأنها أكثر خفاءً. مرة قال لي فلسطيني صديق، بعد حوار حار في أيام حرب الخليج الثانية: لا يحق لك الحديث عن العراق وأنت بعيد عنه قرابة عقد ونصف ! إنه انتزع مني عراقيتي، وانتزع من إقامتي في لندن كل معاني الهرب من الدكتاتور، والاحتجاج ضده. وجعل من سنوات المنفى وثيقة ثبوتية لبطلان الحق بالانتساب لوطن.

إنه بيّت أمراً قلب فيه القاعدة الإنسانية تماما.

اليوم يشيع الأمر المبيّت ذاته داخل الدائرة العراقية المعارضة، وهذا الأمر المبيت يحاول أن ينتفع من اللمسة العاطفية في كلمة شعب الانتفاضة، ليوحي بأن المعارضة في المنفى ليست شعبا عراقيا، أو أنها ليست الرائدة الأولى في الخروج على الدكتاتور، وارتياد المنافي البعيدة. وخاصة فيما يتصل بالكفاءة، والمقدرة على إدارة الحياة، وإدارة الثقافة والتربية، وإدارة الحكم.

إن كل حلقة من ذوي اختصاص تندفع اليوم للحوار فيما بينها حول ما تطمع بأن تساهم به في عراق المستقبل تجد من يخرج لها شاهرا سيف الأمر المبيت: من أنتم؟ وأصابع من وراءكم؟ وكيف يحق لكم أن تبحثوا أمراً دون شركائكم في أرض الوطن؟

العراقي في المنفى امتدت جذور عراقيته بمقدار امتداد سنوات نفيه. وباتساع هذه السنوات اتسعت كفاءاته وخبراته ومعارفه وحكمته. وهو المؤهل بامتياز للحوار وللاجتهاد بشأن بناء بلده، من مقاعد البرلمان حتى مقاعد المقهى، ومن صفحات الدستور حتى صفحات الجريدة اليومية. إنه يملك الحق، تحت سماء حريته الفردية، أن يلتقي ويحاور ويجتهد. أما الأسئلة المرتابة التي تلاحقه فهي من مخلفات إرهاب الرقابة القمعية: رقابة الدولة، أو الوزارة، أو النقابة، أو الحزب.

(٠٣/١/١٧)

فعل الغريزة المتدنية

القوى المتحفزة لتسلُّم عراق المستقبل، أفراداً وجماعات، تطمع باحتلال مواقع في السلطة الجديدة، تمنحها إرادة القوة وإرادة المال. حين احتل البعثيون السلطة، والعراق كله، واستتب لهم الأمر في السبعينيات، أشبعوا أطماعاً ثلاثة: القوة، والمال، بالإضافة إلى الجنس. ثلاث ركائز لا يمكن تخيل سلطة البعث دونها، كما لا يمكن تخيل البعثي الطموح دونها أيضاً. فلقد كان البعثي الطموح تجسيداً حياً لفكرة الانقلاب البعثي، وكل ما ينطوي عليه البعث من مشاغل، تبدأ من مخطط اغتيال داخل اجتماع سري، حتى تساميات الحب القومي في كتابات ميشيل عفلق.

إن فراغ الكلمات من الدلالة يعزز فعل الغريزة المتدنية، وكل موروث حزب البعث العراقي كان نتاج ردود أفعال ضد تيارات اليسار، وضد التنويعة القومية القديمة قدم العراق، وضد الأكثرية الشيعية. والدلالة لا تقبل من ردود الأفعال، ولذا فهو نتاج غريزة تتمثل بالإنسان البعثي بصورة تكاد تكون مباشرة ومختبرية.

خذ مسؤولاً بعثياً وتأمله؛ ستجد أنك تتأمل سلطة البعث برمتها، ولذلك لم تكن محاكاة صدام حسين من قبل أقصر بعثي مسؤول، في اللباس، والحركة، والكلام مجرد محاباة، بل كانت مشاركة حقيقية في

فعل الغريزة. وليس عبثاً شيوع لقب القديس على عبد الخالق السامرائي، من قبل البعثيين أنفسهم، حتى عند أكثرهم ولاءً لصدام حسين الذي قتله. والقارئ العميق للنفس لا تفوته رائحة الشماتة وحتى السخرية فيها!

فعل الغريزة المتدنية تتغذى بالقوة والتسلط على الآخر، وإحالته إلى أداة وخادم، حتى في قلب الوظيفة الرسمية. صدام حسين لا يتعامل مع قيادته القومية والقطرية، ومع وزرائه إلا كذلك. وكذلك رئيس التحرير أو رئيس الملاحظين في أصغر دائرة حكومية. إن سلاح السلطة يلغي إنسانية الإنسان لدى الآخر، ويحيل وجوده إلى مصدر مغذ للغريزة المتدنية.

الجوع الشره إلى هذا يجد صداه في قرينه: الجوع إلى المال، لا لأن المال يعزز التسلط في إحالة الآخر إلى مرتزق مُفرَّغ من الحياة فقط، بل لأنه يستثير الغريزة المتدنية في ذاته كثروة مادية أيضاً. إنه كالجنس لا إشباع فيه ولا استثارة إذا لم يؤخذ اغتصاباً.

سلطة البعث ارتسمت، في وعي العراقيين، بهذه الأطماع الثلاثة، والأعوام الثلاثون ملأت بها الأفق حتى ليصعب محوها.

والآن، يأمل العراقيون بالتغيير. ويتأملون، بالبصيرة ذاتها، قوى متحفزة لتسلُّم عراق المستقبل، أفراداً وجماعات، تطمع باحتلال مواقع في السلطة الجديدة، تمنحها إرادة القوة وإرادة المال. وهي تعرف، بحكم الخبرة، أن من يطمع بالقوة وبالمال لم يخرج من دائرة الغريزة المتدنية بعد. وسيكمل المشوار إلى إرادة الجنس!

(٠٣/١/٢٤)

عن الالتباس بشأن الضحية

ما يحدث هذه الأيام، والذي جعل العراق مركز شاغل كوني، هو من أكثر أحداث التاريخ التباساً. الجارح أن هذا الالتباس لا يدرك علته إلا العراقي وحده، لأنه هو وحده الضحية.. والضحية عادة ما تكون عرضة لترف التأويل والاجتهاد.

إن الالتباس في نظر العراقي لا يبدو التباساً أصلاً. فهذه أكبر قوة في العالم تقرر، لسبب ما، القضاء على الدكتاتور، الذي انصرف طوال ثلاثة عقود، داخل عتمة الكواليس، إلى التنكيل به وقتله وانتهاكه وحده. في حين ترك للعرب وللمسلمين وللعالم واجهة المسرح تضج بالمباهج والمغريات.

العراقي استجار طوال العقود من عتمة الكواليس، ولكن لم يسمع الا أصداء خطب العرب والمسلمين احتفاءً بعروض حارس البوابة الشرقية للعروبة والإسلام. فما الذي يفعل العراق، ولاسيما أن سنوات التنكيل والموت عرّته وطهرته من الموروث العقائدي الأعمى، الذي قسم قوى العالم إلى صديقة وعدوه، لغير علة إلا علة النظرة العقائدية الإثنوية التي ترى كل شيء بين: أسود وأبيض، شرير وخير، يمين ويسار، رأسمالي واشتراكي؟

لقد عرف اليوم أن الحياة البشرية سوق مصالح، وتبادل سلع. وأن الارض تحكمها قوى تأخذ بالحوار على قدر ما تملك من عقل، ومن سلاح أيضاً. وأنه يدخل مرحلة اللاعداوة واللاصداقة إذن. فلم لا يتقرب من هذه القوة الأمريكية، وهي على قمة الغرب المتقدم، حين يراها الوحيدة المقتدرة على الإطاحة بدكتاتورية بلده المنسي؟ لم لا يحاورها حتى بشأن تبادل المصالح، من باب إثارة الهمة؟ وإذا يراها مقبلة بحماس أصلاً، ولمصالح مبيتة، للقضاء على حارس البوابة، فما المانع من أن يسارع للحوار معها بذكاء العارف؟

نعم، هناك رجل عقيدة عراقي ما زال يرى أمريكا إمبريالية وعدوة أبدية، حتى لو كان لا ينكر زوال المعسكر الاشتراكي، الصديق الأبدي. رجل العقيدة الذي لم تطهره الآلام، أو لم تمس مجرى روحه تحت الجلد، سيشغل حيزاً داخل الشعار لا داخل الحياة. ونحن لا نأمل بانتصار الحياة على الشعار في مستقبل عاجل قريب.

العربي والمسلم والإنسان حيث يكون، خارج دائرة العراقي الضحية، لا يشكل مشهدُ ما يحدث اليوم أمامه إلا صورة نمطية محزنة لما حدث مراراً في التاريخ: قوة كبرى متسلطة تقودها أطماعها أو غرورها إلى مهاجمة قوة محاصرة داخل حدود بلد ينتمي للعالم الثالث أو الرابع!

العربي والمسلم والإنسان حيث يكون، لا وقت عنده للتفاصيل، ولاسيما أن هذه التفاصيل لا تقتصر على العوامل الذاتية والموضوعية للحدث التاريخي، بل لها علاقة بخيوط الشبكة الدامية داخل كيان الإنسان الضحية (لا القضية الضحية).

العـقـائدي، وكـذلك الإنسـان خـارج دائرة العـراقي المنتـهك، هـمـا وحدهما اللذان لا يحسنان التعامل مع الإنسان الضحية. لأن "القضـيـة" الضحية استحوذت على لغتهما، ومن ثم روحهما، منذ سنين!

(٣١/١/٠٣)

في ساعة الليل

في ساعة الليل التي تسبق النوم، عادة ما أضع الراديو إلى جانبي وأصغي إلى الأخبار، التي لم تعد أخبار العالم، بل أخبار العراق وحده، أو الأخبار حول العراق. ما من أفق لأمل ورجاء إلا وتعكره سحب المخاوف واللايقين. من يعرف ما يخبئ حدث التحرير حين يحدث، وما تصحبه الطائرات والقذائف حين تتجه إلى القلاع السوداء؟

أحياناً، بفعل الضيق أو الخوف، أفلت من صوت الراديو إلى صوتي الداخلي متسائلاً: هل يعقل أن كل هذه الكتائب الخرساء، والسفن الغامضة، والنذر التي تذكر بنذر الأساطير، تعد مع الساعات والأيام والشهور، من قبل أعتى قوى الأرض، لتتجه إلى قلعة شخص بحجم صدام حسين، إلى دكتاتور من الشرق البائس، محاط بشعب عدو، ومرتزقة مبلولين ذعراً؟ هل يعقل أن يحدث كل هذا في زمن تسعى به هذه القوى لاحتلال النجوم؟

في صمت الليل لم أعد لائقاً، أنا العراقي، إلا بمخاوفي. صرت أعبر أصوات الموسيقى، ولا أتوقف حتى عند سوناتا لبيتهوفن، أو أغنية لشوبرت. صرت لا أعبأ، قبل النوم، بطراوة الأحاديث حول الحب، أو فضائل المغامرة، أو كشوفات العلم. بل أسعى وراء أصداء الأصوات

البعيدة، إذا ما كانت تنم عن أية نية للحديث عن العراق، عن المتوقع، وعن الممكن. أحياناً تبدو الأصوات باردة تذكرني بالمطر العاصف على وجه الملك لير في ساعات تشرده. وأحياناً تغلظ وتخشن حتى لتشبه أصوات مجنزرة داخل أرض موحلة. وأحياناً تومض وتختفي كرصاصة طائشة.

أي أرض سيئة الطالع هذه الأرض التي أنتسب لها؟

رصاصة واحدة تكفي لإنهاء دكتاتور. دبابة ومدفع يكفيان لإنهاء قلعة. حدث ذلك أكثر من مرة في سنوات عمري هذه. فلِمَ استعصى الأمر هذه المرة مع دكتاتور لا يستحق حتى رصاصة واحدة، ومع قلعة لا تليق بحصار؟

الأخبار، في ساعة الليل التي تسبق النوم، لا تجيب على أسئلتي، ولا على أسئلة أحد من العراقيين الذين يحشرون الراديو في أسرتهم خشية الصباح. بل هي تعزز بأناة صرح مخاوفك وقلقك ولا يقينك!

قوى العالم المتقدم تتجه بهيئة صواريخ عمياء نحو الدكتاتور.

شعوب العالم تصرخ محتجة!

وأنت بين هذين: الضحية التي لا تملك صوتاً يُسمع، بل أذناً تصغي، في ساعة الليل قبل النوم، إلى أخبار لم تعد أخبار العالمين.. بل أخبار عراقك الذي تنتسب اليه!

(٠٣/٢/٧)

تظاهرات الضمير الحي

حدثُ الأسبوع الماضي كان تظاهرات الغربيين، التي ملأت شوارع العواصم احتجاجا على العزم الأمريكي بشأن الحرب ضد سلطة صدام حسين (أو ضد العراق والعراقيين، كما يفضل الإعلام العراقي والعربي والعالمي). مظاهرات العرب في بيروت هي وحدها التي رفعت صور صدام حسين مع الشعارات المضادة للحرب، أسوة بنظرائهم في المظاهرة داخل بغداد. في حين ركزت كل تظاهرات العالم الغربي شعاراتها حول الأذى الذي يمكن أن يلحق العراقي المضطهد، المطارَد، والجائع من جراء تجريب آخر المستحدثات التدميرية، هو الذي أكلت سلطة صدام وعائلته كل قواه، بدا بيد مع الحصار الذي امتد سنوات عشراً.

التظاهرات تثبت أن للغربيين دربة عميقة مع ما يسمى ضميراً. بالدرجة ذاتها من الدربة التي لديهم مع ما يسمى مصلحة. ديناميكية الحياة تكمن في الثانية، ولكن تحت رقابة الأولى. ومن هذه الرقابة خرج لديهم كل أدب جليل. يبدو الإبداع أحيانا وليد صراع هاتين القوتين، ووليد إدراك قبحهما. ضعف القدرة على إنتاج شبيه للأخوة كرامازوف، والأرض الخراب إنما هو ضعف في جذري الحياة هاذين. ثقافة الإعلام العربية، التي هيمنت على معظم نتاجنا الإبداعي والثقافي تحتقر

المصلحة. أما الضمير فقد حولته إلى نشيد. وبذا أفرغته من المعنى تماما.

تظاهرات الغربيين، في أوروبا وأمريكا لا بد ستعطي درسا مقنعا للمثقف عندنا، بأنهم يملكون ضميرا يقظاً. المثقف الذي يفضل أن ينشد منذ أكثر من نصف قرن، على أوتار عوده الممل، نشيد: المؤسسة الرأسمالية بلا ضمير. مع معرفتنا الأكيدة بأن هذه التظاهرات المذهلة لم تخرج إلا من تنظيمات رأسمالية. إن ابن الرأسمالية "يفضل قدحاً من شاي على قدح بترول"، وهذا واحد من أطرف الشعارات التي رفعت. على أن رفض البترول كدافع للحرب هو الذي هيمن على شعارات المتظاهرين.

الآن أتساءل: لو أن جهاز الإعلام في العالم جميعا أفرغ من مادته، واستبدل بالمادة التالية: إن قرارا عالميا، أو أمريكيا، قد أعلن عن إزاحة سلطة الدكتاتور وإزاحة ما يعتمده من قوة عسكرية، واستخباراتية، وأمنية، ومرتزقة لحماية سلطته العائلية، عن طريق ضربة عسكرية خاطفة (كما يزعمون اليوم)، أو عن طريق تدبير تغيير داخلي يتزامن مع الضربة، أو التلويح بها. والحجة العالمية والأمريكية الدافعة لذلك، تعتمد لائحة تخص نشاط الدكتاتور التدميري على امتداد ثلاثة عقود: بدءاً من تصفية الأحزاب المناوئة جسديا، وخاصة الحزب الشيوعي، ثم تصفية الأجناس غير العربية جسديا، وخاصة الأكراد، ثم تصفية المذهب غير السني جسديا، وخاصة الشيعة في الجنوب والأهوار، ثم تصفية كل عقل لا يغنّي مجد الدكتاتور حتى في حدث حلبجة والأنفال، ثم تواصل لائحة النشاط بالحربين المريعتين اللتين لم تخرجا إلا من سبابة الدكتاتور

وحده، وبفعل طموح ومكابرة شخصيين لا يقدر على التدخل فيهما أقرب مستشاريه. ولقد حصدت الحرب مليونا من أجمل الأعمار، دون ذريعة تعطي للقتلى مذاق التضحية. والمليون الآخر من القتلى ذهب تصفيةً فرديةً أو حرباً كيماوية معلنة على العراقيين. ثم نتيجة لذلك الملايين الأربعة من الهاربين إلى منفى العالم، الذي لا عهد لهم به! وإلى اللائحة تضاف مخاطر الدكتاتور على الجوار، وعلى العالم. فما الذي ستكون عليه ردة الفعل في الشارع العالمي على عزم العالم، أو أمريكا، على الإطاحة بدكتاتور طائش قتل أكثر من مليوني عراقي (هل نضيف القتلى الإيرانيين؟)، وطارد إلى المنفى أكثر من أربعة ملايين، وهدم بلدا، وحرق مجتمعا من جذوره، وأطفأ جذوة ثقافة تتطلع إلى الحياة؟

المظاهرات لم تقل: لا، للقضاء على الدكتاتور، ولم تترك فراغا لذلك. ولكنها قالت: لا، للحرب على الشعب المتعب المحزون، بصورة لا تخرج إلا من ضمير يقظ. حتى أنها بفعل هذا الضمير واجهت ساستها بالتحذير من أن تنفرد بفعلها المصلحةُ وحدها.

أنا العراقي، أعرف أن المادة الاعلامية الناشطة باتجاه الشعب والوطن المتعب قد غيبت المادةَ الإعلامية باتجاه ما فعله هذا الدكتاتور لهذا الشعب ولهذا الوطن. ولذلك أربط بيسر بين الحرب والقضاء على المجرم الحقيقي، ووحدي من يجفل حين استمع لخبر يوحي بالمهادنة. ولن أخرج بالتأكيد مصفقا مهللا، أنا العراقي في بغداد، في الجنوب أو الشمال، أو في المنفى، إذا ما أعلنت الامم المتحدة، أو الولايات المتحدة، قرارا بالتراجع وعدم التدخل.

حينها سأترك صدام حسين لقصائد ثقافة الإعلام الثائرة، تنهشه كما تشاء. ألسنا نؤمن بفعل الكلمة؟! وأترك مظاهرات الضمير الغربي سلوانا حلواً لمشاعر اليسار الأممي. فقد رضع الأممية منذ الطفولة، وهو غير معني بتحليلها وفهم مغزاها.

(٢١/٢/٠٣)

إنسان الحزب

يتحول الانتماء العقائدي إلى ضرب من العُصاب، لا يعرف فيه المنتمي لِمَ انتمى، وبأي دافع ولأي هدف. العقيدة تفرز مواقف بين حين وآخر عادة ما تكون وليدة: ردات فعل، أو محاولة للتوازن، أو رغبة لتحدي الآخر.. ونادرا ما تكون وليدة قناعة عقلية وروحية، لأن هذه الأخيرة لا تزهر إلا داخل الفرد، في ساعة تمتعه بالعقل الحر والروح الحرة. والفرد المنتمي يدخل العقل الجماعي المعتقل بغبطة من تحرر من وطأة الاختيار التي لا يطيقها. وطأة المسؤولية ووطأة الضمير. الحزب والعقيدة سيهبنان له عناصر اليوتوبيا كاملة. سيخلصانه من براثن الزمن (الماضي والحاضر)، وسيطلقانه طيرا سابحا في المستقبل وحده. سيعبئان كيانه بصورة البطل - النموذج، الذي لا وجود له على الأرض، بل في اليوتوبيا وحدها، ولكنه سيحل على الأرض، يوم تحل اليوتوبيا وتصبح حقيقة. وبذلك يشحب الإنسان الناقص - ابن آدم - ويتلاشى داخل كيان ووعي العقائدي.

بعد زمن، لا يملك إنسان الحزب أن يتخيل البشرية إلا كتلا جماهيرية، لا كيانات فردية. وهذه الكتل تأخذ قيمة وجودها كله من مسعاها وأهدافها. وعادة ما يكون هذا الهدف والمسعى رمزيا، أو يملك طاقة الرمز، لكي يسهل تقديسه. وبذلك يسعى إنسان الحزب إلى تجريد

الأشياء الحية، لأنها في زمنيتها غير قابلة للتقديس. ولكي يجعلها مقدسة، ينتزعها من مجرى الزمن الدافئ ويلقيها في رقدة الخلود الباردة. يتلاشى الإنسان ليحل البطل ـ المناضل في مكانه. يتلاشى الأحياء، في مصطرعهم، والطبيعة في استجابتها وتحديها، لتحل محلها فكرة الوطن. تتلاشى رقدة الحياة الكامنة في اصطراع الأفكار والمصالح، لتحل محلها الراية، حمراء، أو خضراء، أو رمادية... وهكذا. ولذلك يبقى إنسان الحزب.. مفعماً بالآمال، حتى لو سُحق نصف البشرية، ما دام البطل ـ المناضل يتوج صفحة الغيب، حتى لو هتك الناس والطبيعة، ما دامت فكرة الوطن معافاة وحبلى بالآمال، حتى لو توقفت أنفاس الحياة، ما دامت الراية خفاقة في الأفق.

إن موت الإنسان، وموت آلاف الناس، بالقمع والقتل ليس إلا عَرَضاً تاريخيا في المسعى الكبير إلى الهدف. إنسان الحزب يؤكد لنفسه دائما: ألم نقدم أنفسنا قربانا على مذبح القضية؟ ألم ننشد: نموت ويحيا الوطن؟ إن التضحية بالإنسان هي أولى استعدادات إنسان الحزب، وقد يتنازل، فيما بعد، للتضحية بالطبيعة، ولكنه لن يتنازل مطلقا عن الأفكار المجردة، وعن الرموز والإشارات المقدسة.

شاعر الحزب، مثل إنسان الحزب، غير معني بالإنسان مطلقا ـ مع أن الشعر لا قوام له دون الإنسان. وبذلك يحاول شاعر الحزب معجزة لا سبيل إلى تحقيقها. إن إنسانه داخل القصيدة ليس إلا ظلا خداعا للإنسان الحقيقي ـ لابن آدم. إنه البطل ـ المناضل، أملت تفاصيله اليوتوبيا بحذر، لكي يبدو متماهيا مع الإنسان الحي ـ ابن آدم. قد تضع له اليوتوبيا أسماء وألقاباً وملامح من الحياة اليومية. قد تضع على

لسانه بضع عبارات عامية، قد تحشره في بار، أو مقهى، أو زقاق، أو مدينة في منفى. ولكنه يحتاج منك للحظة تأمل فاحصة، قد لا تطول، لكي تكتشف أنه لا يعدو ذلك النموذج النمطي للبطل ـ المناضل، الذي خبر الاجتماعات السرية، والمعتقلات والسجون، والهرب الشجاع، والمنافي الكريهة.. وبقي، دون درن الأرض، نقيا ساميا مثل رايته.

شاعر الحزب في زمن المحنة، لا يتسع كأب، محتضنا جميع الضحايا كأبناء، بل يتعالى كنبي لاعنا ضعفهم، محتقرا رغبتهم في البقاء.. إنه لا يتسع كأبي العلاء الشكاك. بل يتعالى كالمتنبي اليقيني.

شاعر الحزب، في زمن المحنة، يناضل، يلملم أشلاء بطله ـ المناضل، يضمه إلى بعض، ويحشره داخل شكل قصيدته، فيبدو مثيراً للرثاء والضحك.

الإنسان الضحية هو إنسان زمن المحنة. ولأن القصيدة ليست شكلا جاهزا يقبل عليه لاحتوائه، كما تقبل قصيدة شاعر الحزب على البطل ـ المناضل، لذا ستبتل القصيدة بدمه ودموعه، لأنها تنمو منه، متعانقين ككائنين مذعورين.

شاعر الحزب ينظر من داخل غرفته المحصنة بالأمان والعافية، ومن تحت رايته الصامدة كعقيدته، إلى إنسان المحنة هذا، فيحشره: ملعونا، تاريخيا، عرضة للحياة، خائنا للمقدس، داخل شكل قصيدته الجاهز، بديلا عن البطل ـ المناضل، الذي وضع صورته مبتسمة على الجدار.

إنه شاعر الآمال. وينتظر أن تزول ساعة مغيب ابن آدم. لتطلع عليه ساعة مشرق البطل ـ المناضل.

(٢٠٠٣/٢/٢٨)

في انتظار طوفان نوح

١

حين زرتُ بيروت أواخر التسعينيات بدعوة من مهرجان بالغ الرداءة وضعنا في فندق فخم خارجها، كانت استجابتي عالقة بطرف سائب من خيط وهمي: أن أتتبع، ولو على عجل، تلك الآثار التي ساهمت في تشكيل كياني الروحي، في السنوات ٧٠ ـ ١٩٧٢، التي قضيتها فيها مشردا ولكن بمباهج قديس. على أني لم أغفل مساهمتي في تشكيل كيان تلك الآثار أيضا!

في اليوم الثاني من وصولي، قطعت الطريق إلى العاصمة بمشقة. إلى "الروشة" وصلت. وقلت سأبدأ تجوالي بدءاً من مقاعد "الدولشفيتا"، ثم الطريق الضيق الذي يصل الروشة بشارع الحمرا. في منتصفه أول سكني مع محمود ريماوي، ثم من هناك أنحدر إلى جادة السادات، حيث سكني الذي غادرت منه عائدا إلى بغداد. وبعدها، هل سيتسع الوقت لمطعم الأمين ولأحمد النادل الذي سيهتف بي: أبا الفوز، سمك اليوم، وبطحة عرق بالتأكيد؟ ثم ماذا عن تكايا الليل في الحمرا، وتكايا النهار في دور النشر؟ كانت ارتعاشة الاتصال بالأسطورة تستيقظ بي بفعل نسمة البحر. لأن الماضي يتمتع بالخصائص ذاتها التي تتمتع بها

الأسطورة. في حين ينفرد التاريخ بالحاضر. أما المستقبل فتنفرد به اليوتوبيا.

وقفت مذعوراً، لأني لم أقع على أثر للدولشفيتا. وحين قطعت الطريق الموصل إلى الحمرا لم أقع على سكني. وعلى اليمين بعد منحدر جادة السادات لم يبق من سكني الآخر غير باب الحديقة والرقم ١١. أما البيت ذاته فقد اقتلع، وملأ الإسمنت أسس عمارة جديدة مقبلة على الحياة. هناك تتحول أشياء الماضي إلى إشارات ورموز. في داخل البيت المقتلع كانت سيدة البيت تملأ كل صباح زجاجات البراد بالماء، وفي فم كل زجاجة تترك قطرتي عرق أبي سعدة، وتقول لي، وكأنها تجيب كيانا تحول إلى تساؤل: شو زاكية ريحتو، قطرة بس.

لم يبق من بيروت شيء! لم يبق مني شيء في بيروت! ولكن بيروت بقيت مضاعفةً في كياني!

كم تبدو هذه المحاور الثلاثة متعارضة داخل التاريخ؟ وفي الأسطورة كم يتلاشى التعارض؟

٢

ما من جذور بيني وبين بيروت لتُقتلع أو تُحرق. بل علاقة وله بابنة جيران غنية. عاشرتني وأنعمت عليَّ بما لا عهد لي به من الحرية، واللياقة، والعطر. وما إن رجعت إلى عهدي الأول حتى التحقت بيروت بالأسطورة.

بيني وبين بغداد جذر اقتُلع وحرق. وتم هذا الاقتلاع والحرق على مراحل لا رحمة فيها. سأحاول استعادتها هنا بحذر من يداعب عقربا.

الأولى: حين اكتشفت في الستينيات أن الحياة العراقية (والعربية ولكن بوطأة أخف) ليست إلا معترك عقائد. وأنا بلا عقيدة. وأن الثقافة العراقية (والعربية بوطأة أخف) ثقافة يسار، رفع الفكرة والشعار إلى مستوى من القداسة لا عهد لهما به. وتقزّم دونهما الإنسان، الذي أحسبه مقدسا، وتقزمتُ معه. وهل يكتب المتقزم إلا قصائد غاية في الحزن؟ كانت المرحلة غاية في القسوة والقمع، وهي ترفع راية عقائدها المقدسة فلا تترك متنفسا في الأفق. لقد تلاشت الحرية، وتلاشى الإنسان كفعل وصيرورة، وحل محلهما الإنسان، والحرية، والحياة، والثورة، والمستقبل، ككتيبة ألفاظ مفرغة من المعنى، لا بفعل التكرار وحده، بل بفعل ما تنطوي عليه من سوء: في الضدية، ونزعة التشكك والاتهام والطعن والكراهية، والتأليب والتخوين. حتى أصبحتُ أفتش، في ليل معترك العقائد، فلا أقع إلا على الكائنات الإنسانية المطعونة، المتهمة، المدانة. أما نمط المناضل الأمثل فلا أجد أثراً له إلا في قصائد ونصوص ثوريي الأحزاب! أصبحت صفيّ المطعونين المدانين، وما ألفت وصحبت مناضلا في حياتي. على أني لم أغفل ملامح الشبح، وهي تفلت من داخل تلك القصائد والنصوص، مستثمرة سنوات المعترك الدامي، والفوضى الفارغة، لتتشكل وتتكون في هيئة مناضل استثنائي اسمه صدام حسين!

المرحلة الثانية: حين قررت سلطة صدام وعائلته إزالة محلتي العباسية، ومصادرة الأرض سكنا لهم ومتجعا، لجأت، أنا وأخوان لي، إلى شقة في الصالحية، ولكن قرارا أمنيا يمنع أي عازب عن السكن دون عائلة، جعلني ألملم مكتبتي الكبيرة وأودعها في مخزن رطب لأحد

النجارين، وأهرع للسكن في فندق بانس. بقيت في غرفتي مع الجرذان، أكتب عن العفن في أردية المتصوفة الرطبة، وأتأمل من حافة كأسي، كأس الدموع، الحركة الدائبة للثقافة التقدمية. كان السياب وعبد الصبور آنذاك عزائي في الخلوة وسلواني.

المرحلة الثالثة من مراحل الاقتلاع والحرق حلت مع قرار الإقامة في لندن. هنا انتسبت كلية إلى عالم لا يمت إلى الزمن، وإلى مراحله بصلة. إلى بهو مكتبة عظمى، لا تطل على الحياة فيها إلا عبر نوافذ معشقة كامدة الألوان. مع الكتاب والموسيقى والرسم. ولم أشعر، على امتداد عقدين ونصف من السنين، أني تجاوزتها إلى الزمان الإنكليزي والحياة الإنكليزية. لقد أودعت الزمان والحياة بين دفتي دجلة والفرات، آملا بعودة أخرى أودعتها في رائحة الطلع والأسماك والأجساد، في رائحة الغوايات والفتن، في رائحة الوسواس، تحيط رؤوس أصدقائي كهالة. في رائحة الحليب، التي تصلني بكل خلية حية هناك. في رائحة القتلى الذين ورثوا الأرض.

والآن، حين يداعبني الأمل بالعودة، هل التحقت بغداد بالأسطورة كما التحقت بيروت؟ هل تضاعفت في كياني، في حين لم يبق منها شيء، ولم يبق مني شيء فيها؟ وهذا الذي في كياني منها أهو ذاته، أم اختلاق مخيلتي المحمومة؟ وهل ذاكرتي أمينة ومستقلة إلى هذا الحد، الذي تبدو فيه العباسية، وبغداد، والعراق، مصدر كل قصيدة ونصاً كتبته، على امتداد ربع قرن من المنفى؟

٣

لندن أعطتني الكثير: لغةً جديدة، ركنا ومقعدا غاية في الهدوء، وكتبا واسطوانات تأتي بمجرد الإشارة، وابتسامة كريمة ما أحوج كياني المتعب لها. منحت كل هذا داخل بهو المكتبة الجليل. أحيانا، حين أخرج من البيت، عابرا بائع الخضر الإنكليزي، أجدني أهتف به: أبو سلمان، البطيخ زارب اليوم؟ يبتسم السيد مارك، عارفا أني أرطن بلغتي التي لا يفهمها، بسبب الحصار الروحي الموحش، الذي يترك أحدنا كالفأر:

في المدن الكبرى أشعر أني أكثر يتماً.
ويتيما حين أسمي كل صداقاتي الأولى،
وحماقاتي الأولى.
(١٩٧٩)

ولذا أعرف أني إذا ما رجعت إلى بيت أبي لن أتخلى عن مقامي اللندني. فقد صرفت فيه نصف حياتي الأكثر نضجا. هنا تعرفت بعمق على وفاء الحضارة للإنسان كإنسان، عاريا من جنسه ودينه وانتمائه. وخبرت المصدر الذي خرجت منه مبادئ حقوق الإنسان إلى العالم. هذه المبادئ التي وعدت المشرد دون وطن بالبيت الآمن، والمعاش الآمن، والتعبير الآمن. وهنا نضجت لدي مشاعر المسؤولية تجاه النفس، والجاه الآخر، واتجاه الوطن الذي أنتسب اليه. وللندن، هذه المدينة التي يسميها شاعر يساري في الستينيات: "مدينة الظلام واللصوص"، يعود الفضل للإنارة الروحية والعقلية، التي أزعم أني أتمتع بها. وعبر هذه الإنارة

تعرفت على السحر الكامن في التنوع الفسيفسائي للتكوينة العراقية: عربي، كردي، تركماني، فيلي، أرمني، فارسي، آشوري، شيعي، سني، مسيحي، مندائي، إيزيدي. وصرت أستوعب هذا التكوين بروح احتفالية، كما كنت أحتفي بها أيام الطفولة والصبا والشباب الأول، قبل أن يطلع علينا "هامبابا" البعد القومي، ذو الرائحة الكريهة، بكل ما ينطوي عليه من شوفينية، وعنصرية، وطائفية.

أنا عربي دون اعتزاز أو شعور بالعار. وعراقيتي وحدها التي تجعلني قادرا أن أكون عربيا، وكرديا، وتركمانيا، وفيليا، وأرمنيا، وفارسيا، وآشوريا، وشيعيا، وسنيا، ومسيحيا، ومندائيا، وإيزيديا، في آن واحد. إنني أعرف مركز الإضاءة في كل عنصر من عناصر العراقي هذه، كما أعرف مركز الإضاءة في مياه الأهوار والأنهار، في رمل الصحاري، وصخور الجبل.

٤

المنفى الطويل أعطى عراقيتي مسحة غامضة دون شك. لقد أُصبت بالجلطة القلبية بعد أقل من سنة من إقامتي في الملاذ اللندني. كانت أولى محصلات قمع السبعينيات العقائدي. ولكن تحت رعاية اليد الغريبة بقيت حيا، أرقب موت أصدقائي الذين خلفتهم واحدا واحدا: منهل نعمة، عباس فاضل، محمد شمسي، محسن إطيمش، محمود جنداري، عبد الجبار عباس، نصر محمد راغب، أحمد فياض، سامي محمد، موسى كريدي، جاسم الزبيدي، موفق خضر، غازي العبادي، أحمد أمير، رعد عبد القادر، شريف الربيعي.. والقائمة لم تتوقف عن

الامتداد! كما أرقب موت النخيل، والأهوار، والنهر، والخمارة، والمقهى. حتى أن شارع أبي نواس لم يعد محجّة الليل! والمقابر السرية الجماعية أعادت، بفعل تزاحمها، مجد العالم السفلي تحت المدن الجافلة.

الضحية تحيا بلا شروط وبلا خيارات. والعراقي اليوم لا تشغله السياسة. إنه معلق بخيوط أمل واهية. آخر هبة الأقدار، في أن يزال هذا الكابوس الرابض على كيانه ٣٥ عاما، وفي أن يتوقف هذا الجرح النازف، والإبادة الجماعية. الآخرون، خارج جسد الضحية، يرطنون بالسياسة داخل بحبوحة الخيارات، ومباهج النظرية. يفكرون كثيرا بمستقبل العروبة، والسيادة، والثروة القومية، والاشتراكية، ويتحاشون النظر إلى الإنسان وهو يذبح أو يغيب في أحواض الأسيد.

أنت مع الحرب، أم ضد الحرب؟ واحدة من أكثر العبارات الشائهة التي فرضتها ثقافة الإعلام، وشغلت بها المثقفين والناس، ممن يملكون استعدادا جاهزا للعوم في الخلاف العقائدي. العراقي لا يراها حربا، ليقف معها أو ضدها. إنها بالنسبة له فرصة خلاص استثنائية ووحيدة ولن تتكرر، تصدر عن قوة كبرى، هي وحدها القادرة على إزالة سلطة الدكتاتور، وعائلته، ومرتزقته، بكل ما يملكون من ثروات وقوى عسكرية وأمنية وتدميرية، تفوق أية قوة عراقية في الداخل، أو عربية وإسلامية في الخارج.

العراقي يخاف الضربة العسكرية للنظام. يخاف ردود فعل النظام التي يعرف مقدار شراستها. يخاف طيش الحرب وفوضاها. ولكنه يخاف أكثر وأعمق دبيب الموت اليومي المنظم الذي عاشه طوال ٣٥ عاما. الدبيب الذي يحيطه كأذرع عنكبوت. يعرفه في طرقة باب منتصف

الليل، في الجثث على الأبواب، والتنكيل في استرداد ثمن رصاصات الإعدام. في قطع الآذان والألسن. في طوابير المعاقين بفعل الحروب. في توابيت العائدين من الجبهات، في قوائم المفقودين، أو الأسرى الذين رفضوا العودة. في المقابر الجماعية. في القرى المبادة على شاكلة حلبچة والأنفال. إنه يخاف من ذلك أكثر وأعمق. ولذا ينتظر طوفان نوح.

(٢٠٠٣/٣/٧)

الشاعر والشاعر ـ السياسي

السياسي يملك أن يقول: لا للحرب، لا للدكتاتورية. أو يطالب الجامعة العربية والضمير العالمي بتنحية صدام حسين عن السلطة، أو يجمع بين الدعوة للتعجيل بطرد وترحيل الدكتاتور وبين مقاومة المحتل الأمريكي... الخ. اللغة لدى السياسي ذات مهمة إعلامية قابلة على تسويغ التناقض واللعب على الكلمات. وبمقدار ما يباعد بين الكلمات ومعانيها، وبمقدار ما يفسد اللغة ويعطل وظيفتها الحقيقية، تتحقق فاعليته ويثبت نجاحها. على الرغم من معرفته، بحكم البديهة، باستحالة الوصل بين الكلمة والدلالة. بين الكلمة ومدلولها الحي. بين الكلمة والشيء.

أعتذر عن استخدامي كلمة السياسي معتمدا الفهم الشائع والبديهي للكلمة: إنسان المعترك الحزبي، أو العقائدي، أو معترك السعي إلى السلطة. هذا الإنسان الذي اتسعت ظاهرته حتى غمرت شعراء ومثقفين كثيرين. كم أصبحت ظاهرتهم قاعدة، حتى بدا شاعر مثل السياب شذوذا لا يستحق أكثر من كلمة انتهازي؟!

حين كتب البريكان قصيدته عن السجناء السياسيين وراء القضبان تمثل الكائن البشري فيهم منفيا عن حريته وكرامته. جردهم من النموذج

أو المناضل الخالد، وأعادهم إلى إنسانيتهم الأرضية القابلة للزوال، وحّدهم بأشباههم، في كل مكان وراء قضبان، بغض النظر عن المعتقد، لأن الشاعر يعرف أن العقيدة عمياء. الشاعر هنا يشذب الإنسان من النموذج النمطي ،الوحيد، الأمثل ، تماما كما يشذب اللغة من الصياغة المختالة في خطابيتها اللاعقلية.

شاعر الحزب، أو العقيدة، أو المعترك نحو السلطة، لا بد أن يعيب على البريكان إسقاطه قشرة النمط المناضل الأمثل، من أجل هذه العقيدة لا تلك، عن السجين، لأنه غير معني برؤية الإنسان في محنة وجوده وراء القضبان، عاريا عن تفوقه العقائدي. الشاعر - السياسي يفضل البطل، ليستغني به عن الإنسان الأعزل. تماما كما يفضل اللغة البطلة المثلى، التي توحي بإسقاط الدكتاتور بسواعد قوانا الشعبية الكامنة... الخ. ويستغني بها عن اللغة التي تقول بأن قوانا الشعبية كامنة في المقابر الجماعية، وفي السجون، والمنافي، والمخاوف.

(٢٠٠٣/٣/١٤)

يتامى غياب المؤسسة

جيلنا والأجيال اللاحقة، وحتى الجيل الذي سبقنا، لم ينعم بوجود مؤسسة الدولة التي ترعى أبناءها، حتى لو ظل رعاية، باسم أعمدة الدستور، والقانون، واستقلال القضاء، واحترام المعتقد، وحرية الرأي، التي تعتمدها.

نحن، على العكس، يتامى غياب مؤسسة الدولة منذ عقود وعقود، تمتد حتى تغيب عن النظر في طيات التاريخ المظلم. ولدنا ونشأنا وشخنا تحت ظل شبح سميناه - بفعل الخوف والحذر - دولة. وهي ليست كذلك. تماماً كما سمينا، مرغمين، المرتزقة وزراء، والخدم مدراء ورؤساء، داخل أقبية ودواوين السلطان المخصصة للمرتزقة والخدم.

لم نذق طعم أدوارنا كبشر في إدارة عجلة الحياة، ولم نختبر قدرتنا على أداء الواجب الذي علينا، وتسلُّم الحق الذي لنا. ونعمة الاختيار التي منحت للإنسان ليست عندنا أرفع قدراً من حذاء قديم على رصيف مهجور.

كاتبنا لم يعرف في حياته كلها فرصةً أن يكتب رأيه في جريدة، لا تعود ملكيتها لسلطة العائلة الحاكمة، أو للحزب الذي يفحص كلماتك، ليتأكد من مقدار صلاحيتها لمبادئه المقدسة. وقارئنا لم يمسك في حياته كلها جريدة تستحق أن تنتسب لعائلة الرأي العام. والأدهى من كل ذلك

أننا تعودنا، مرغمين، على تسمية الجلاد رئيساً، والمرتزقة وزراء ومدراء، وكل هذه التراجيديا حكومة ودولة، والصفحات المملاة بالترغيب والترهيب والباطل صحافة ورأياً عاماً.

جيل بعد جيل يعيش محنة انحسار الحياة عن معنى وجوده كله. ويعيش محنة التزوير التي يحاولها لإيهام النفس بالمعنى. حتى صار، بدل الإحساس بالحرية، يستمرئ الحديث عن الحرية، وبدل التعامل الفعال مع مؤسسة الدولة يستمرئ الجدل بشأن مفهوم الدولة.. لأن هذا الجيل وكل جيل لم يكن حراً يوماً، لتفاجئه عبودية السلطة القاهرة فتصيره عبداً. إنما هو، منذ الولادة والنشأة الأولى، داخل قبو الوطن، الذي لا دولة فيه، يتنفس هواء المسرح الفاسد. ويحدق كالأبله إلى المشهد الذي يتكرر عبر السنوات الطوال دون نهاية: انقلابي حاكم، ومرتزقة يرتقون جثث الدستور، والقانون، وحقوق الإنسان، وحرية الرأي، من أجل رفع العلم المقدس.

إن الذي يحدث هذه الأيام من زلزال قد تبدو الإطاحة بصدام حسين فيه إحدى الاستجابات الحارة للآمال والأحلام الكثيرة. إلا أن بقية الأحلام تتسع لرؤية مؤسسة الدولة تخرج إلى الأرض المحزونة كما يولد الطفل من الرحم، جديدة ولا عهد للعراقي بها من قبل. عسى أن نرى، نحن الأجيال المنحدرة إلى النسيان، ما يدهش من فاعلية الإنسان الحرة في الانتخاب، وأداء الواجب، والتصريح الحر بالرأي.

عسى أن نرى الإنسان وهو يأخذ موقعه السامي بدل الراية والشعار.

عسى أن نرى العراق، لا حارساً مدججاً بالسلاح لبوابة العقائد الكاذبة، بل مياهاً وأسماكا ونخيلاً تحتضن أبناءها، وقد أنهكهم الترحال.

(٠٣/٣/٢١)

آخر ساعات الكابوس

في ساعات كهذه تبدو الكلمات عصيةً على اللسان، وعلى القلم معاً. فبمنتهى الحذر يقبل أحدنا على توليد الفكرة أو التعبير عن العاطفة. التلفزيون أخباره شحيحة، ومطوطة على امتداد ٢٤ ساعة في اليوم. وأنت لا تغادر شاشته خشية فوات الخبر الطارئ، وكأنك معلق به، هو الذي ينتصب للمجهول! كل قاعدتك التي تعتمدها أصبحت مقلوبة، وتتحرك باتجاه لا تفترضه البديهة. ها أنت تقف مع الحرب، وتؤلب الجندي الأجنبي على أن تكون حربَه خاطفةً على أرض وطنك، وترى بعينيك سماء بغداد تحترق، وعيونَ ناسك تغيم بفعل الخوف!

هناك أيام في التاريخ تتلاشى فيها البديهة، ولا يحسب للقاعدة حساب. بل هناك أيام تنقلب بها القواعد، أو تُقتلع من جذورها وتُرمى في الريح. حدث ذلك في العراق منذ اليوم الأول الذي قبض فيه الحزب الواحد على مقاليد السلطة. ومنذ ارتقى صدام حسين قمة الهرم بمسعاه الدموي بدأ العراقي يشعر أن غزواً أجنبياً، على درجة عالية من الشراسة، حل في مدنه. وأن احتلالاً يطبق على أرضه من قبل قطاع طرق غرباء. صار هذا الشعور يتجذر في كيانه مع الساعات والأيام. ومع الأيام صار الغزاة والمحتلون، وقد قبضوا على ثروة العراق، يبحثون

عن مرتزقة للحماية، وعن خدم لتصريف شؤون السلطة العائلية. وقد سموا كل هذا حكومة وقوى أمن وطني. إلا أن الشعب المستفز راح يرقب سلطة الغزاة، بثروة العراق الهائلة، تمتد خارج حدود العراق، لشراء الذمم وتأسيس ثقافة إعلام عربية، غاية في الدناءة والرخص. بل تمتد خارج حدود العالم العربي إلى العالم أجمع .

لقد حاول الشعب المستفز أن يفعل شيئاً، الا أن محاولة الغزاة كانت، بسبب استحواذهم على الثروة، وبسبب قدرتهم الفائقة على القتل والتصفية، أجرأ وأسبق. كان مجرد ذكر أسماء: صدام ، برزان، وطبان، طلفاح.. الخ، كفيلاً بتعيين ملامح الغزاة الغرباء. وكفيلاً بإدراك القاعدة المجهولة التي سيعتمدونها في تأسيس قواهم الأمنية الخاصة. وكان هذا وحده كافياً لإشاعة رائحة الموت. ولقد شاع الموت حقاً، منذ ربع قرن.

على شاشة التلفزيون ألمح مشاهد خاطفة تُنقل من بغداد ، أو بعض المدن الأخرى، تطل فيها على حين غفلة بعض من تلك الوجوه والهيئات، بسلاح أو دون سلاح، إلا أنها تملأ كياني ببرودة الذعر، لأنها تظهر معبأة بطاقة الموت ذاتها ، التي ألفناها يوم كنا هناك، وألفها العراقيون طيلة سنوات الضيم. إنها وجوه وهيئات الغزاة التي لا تخطئها العين. العراقي في الداخل يحس ذلك بمجسات أكثر رهافة وأعمق من المجسات التي أملك. ولاشك أنه ينظر إلى وجه وهيئة الجندي الأجنبي، كما أنظر، متسائلاً: من منهما الغزاة المحتلون؟ إن الليل الذي أطبق عليّ منذ ربع قرن لم يضعف قدرةَ بصيرتي على التمييز. ولم يربك حاستي في تشخيص عدوي. تلك الوجوه والهيئات لها تكشيرة وأوتار حنجرة

تنعكس عليهما تكشيرة وأوتار صدام وبرزان ووطبان وطلفاح.. الخ. إنها شبكة بآلاف الخيوط، انحدرت من ثقب أسود، وأطبقت على الحياة والأحياء. والآن يرقب العراقي من نافذة مخاوفه، هذه الشبكة الأخطبوطية معرضة لسكين الصياد.

إن حاسة الحذر وعدم الاطمئنان من وجود الأجنبي، غريزةٌ طبيعيةٌ في كيان العراقي، وكيان الإنسان عامة. تتضاعف الحاسة بالتأكيد حين يكون الأجنبي مستثمراً أو عسكرياً بسلاح. ولكن هذه الغريزة تحتاج لظرف تاريخي طبيعي لتكون بدورها خالصة من المؤثرات.

الظرف الذي يعيشه العراقي غير طبيعي منذ أكثر من ربع قرن. إنه تحت وطأة غزاة أقسى وأكثر وحشية من الأجنبي العسكري المستثمر. ولذلك لا تبقى حاسة حذره وعدم اطمئنانه من الأجنبي، حتى مع سلاحه، خالصةً كما كانت في الظرف الطبيعي. الأجنبي الآن قوة زعزعت تماسك الجلاد والقتلة، وهما العدو الحقيقي المنفرد والوحيد في وجه العراقي الأعزل المقهور.

هذا العراقي لا متسع في كيانه الجريح لمشاعر الظرف الطبيعي والحياة السليمة، حتى يفكر بالقوى الأجنبية، باعتبارها قوى مستهترة معادية بحكم الغريزة. غريزته ومشاعره وعقله محتل بالذعر من سلطة الدكتاتور، وبالكراهية له. وهو ينتظر أية بارقة أمل تطلع عليه من أي ركن ظاهر أو خفي من أركان الأرض، تعده بالخلاص.

أمام شاشة التلفزيون أجلس الساعات الطويلة، وكأني ألف كيانٍ عراقي موزع على مدى واسع من المشاعر والأفكار. ولكنها رغم تعارضاتها وتمزقها، لا تبدو لي عناصر من مشاعر وأفكار مستقلة عن

بعض، كما تستقل كلمة نعم عن لا، بل هي عناصر كياني العراقي الواحد، المنهك، النازف، المستجير، المتحفز، الآمل، الباكي ـ الضاحك، القلق، العارف بأن ما يحدث هذه الأيام لن يكتمل دون نتيجة، تكاد تكون يقينية: انتهت مرحلة البعث، ومرحلة صدام حسين. كابوس الغزاة، الذين حلوا في غفلة من التاريخ، ومن خرق أسود سيكون مصدر تأملاتنا لزمان طويل قادم.

(٠٣/٣/٢٨)

يوم يعلو الإنسان على الرايات

التلفزيون في الطابق الأول. أتجنبه عادة لأنصرف إلى مشاغل القراءة والكتابة، وما يحيطهما في الطابق الأرضي. هذه الأيام أترك التلفزيون حيا طوال الوقت، أرتقي إليه السلم وأجلس قبالته ساعة أرقب وأترقب. ما من شيء يحدث على هواي. جيوش الحلفاء تلاحق بالطائرات والدبابات والمدافع الرشاشة شبحا لا يبين لهم، كما يعلنون. ولكنه لا يفارق مخيلتي، لأنني أعرفه. حتى لأكاد أضع مخططا لملامح وجهه. أعرفه منذ أكثر من ثلاثين عاما. في سنوات المنفى أعانتني الأحداث والأخبار على استعادة واستكمال ملامحه. أعرفه في شخص الشاعر، الذي علمني حرفةَ الخوف بإدانته لي، وارتيابه مني، وتعاليه عليّ. حتى صارت قصيدتي جرذا مبلولا لاطيا في ركن الجادة، التي يسير هو فيها مع رفاق الثورة باتجاه المستقبل. أعرفه من رايته، التي يدفعها لكي تعلو فتتقزم القامات تحتها، صارخا بهم: ألا انحنوا لشرف الرمز، وكونوا له الفداء. أعرفه في كُتّاب التقارير، من صغار الكتبة، مدفوعين إلى هذا الواجب المقدس، بفعل شيوع القناعة في شرعية اتهام الآخر بالعمالة والخيانة. لا لمجرد اختلاف في الرأي، بل بسبب تعالي مثقف العقيدة عن أن يكون إنساناً معرضا للقصور شأن كل الناس. فهو

فكرة مجردة حدّ الكمال. ولها وحدها الحق في تقرير مصير الآخر. أعرفه من القصيدة . كاتمة الصوت، المؤلبة أبدا على الكراهية، والقتل، وابتكار الأعداء. أعرفه من الوجوه الملثمة، التي بدأت تدخل مدينتي المقهورة، على وجل أولا، ثم دخول الفاتحين بعد ذلك.

في أواسط السبعينيات كنا، أنا وجاسم الزبيدي ومنهل نعمة ومحسن إطيمش وآخرين (طواهم الموت البعثي جميعا!) ننعم بغداء شهي يوما أو يومين أسبوعيا في مطعم "فوانيس" المهذب، أسوة بآخرين سبقونا اليه. أذكر منهم الراحل نجيب المانع. وفي ساعة، قررنا أن تكون الأخيرة، هجرنا "فوانيس" بسبب إطلالة تلك الوجوه التي بدأت تملأ أركانه. وفي گاردينيا حدث الشيء نفسه، ولكن على درجة من الخطورة كدت أذهب ضحية فيها. الوجوه تلك صارت تظهر على هيئة أشكال لا تحصى، ولا يعرف المواطن كيف يتكيف مع حضورها القاهر، أو يتطابق مع شروطها المتعارضة مع كل ما يجعل الإنسان إنسانا! أعرفه من آلاف المقالات، والقصائد، والكتب، التي تقول لك انظر إلى السمكة وقلْ هذه بعسوية. وإلى برْزان وقل قمر الزمان . حتى أصبح طعم التمرة في فم العراقي أمرّ من الصبر. أعرفه من الهيئات المسلحة التي تطرق بابك ليلا، تأخذ حيا عزيزا، أو تترك ميتا عزيزا على أعتاب دارك، وتنصرف إلى العتمة التي خرجت منها. أعرفه مجسدا في هيئة علي حسن المجيد، الذي لا أنساه ملثما في شاشة التلفزيون، وهو يضرب بحذائه العسكري على صدر فتى الانتفاضة، الذي تُرك بدشداشته المهترئة دون معين. أعرفه عبر آلاف الجثث الكردية التي دفنت حية في الأنفال، والآلاف الأخرى التي بعثرتها الريح في حلبجة، والآلاف التي طمرها طين ووحل

جبهات القتال، تحت الأناشيد التي تغني شرف الوطن، وشرف الثورة. أعرفه في الموت الأخرس الذي طوى آلافا في أحواض الأسيد، تحت راية حماية الثورة التقدمية من مؤامرات الإمبريالية المحبطة.

اليوم أعيد كل آلاف الضحايا هؤلاء، بالأطيان والثياب الممزقة، وبكل صرخاتهم التي تصم الآذان، ونزيف دمائهم، تماما كما يستعاد الموتى في يوم الدينونة، لألقيها من جديد في وجه الصارخ تحت رايته المقدسة، باسم شرف الوطن وشرف الثورة، لعلَّ هذا الشرف السامي ينحني، ولو مرة واحدة، رهبةً وخشوعاً لجلال القتلى، وآلام المعذبين والخراب.

أعرف هيئة القاتل الملاحق الآن على شاشة التلفزيون. أعرف أن نهايته وشيكة. فهذه رايته تحترق، ومعها تحترق كل الرايات، التي تعالت على الإنسان. وأصبحت مقدسة دونه. وأعرف أن هذه النهاية المأمولة لن تكون عزاءً وافياً لكل الموت والآلام التي خبرناها بأجسادنا وأرواحنا. فسيظل هناك متسع لشعراء وعقائديين يخرجون إلى الناس بقصائدهم وخطبهم، يؤلبون على الكراهية والقتل واختلاق الأعداء باسم الوطن والثورة. وسيظل هناك مجال لخروج شبح من هذه القصائد والخطب، يتشكل بدأب ليتجسد في هيئة صدام حسين جديد!

ولكن من يحترس يعرف الغيب.

(٤/٤/٠٣)

الشاعر أمام شاشة التلفزيون

١

شاشة التلفزيون ستصبح هذه الأيام، بالنسبة للشاعر العراقي المنفي، نافذةً ذات طابع سحري، على عالمه الداخلي. إنه أولاً ليس مشاهداً فحسب، بل فاعل. وفاعل ليس في مركز القرار. عراقي لا يرى ما يحدث فقط، بل يرى ما وراء الذي يحدث، ولم يحدث. وكيف أنّ شخصاً واحداً استطاع أن يقود شعباً ووطناً إلى الهاوية. وكيف أن وطناً صار، في لحظة من الزمن، مركزَ الأرض. وكيف أصبح ساحةَ معترك لجيوش العالم العاتية.. هل التاريخ يتحرك وفق حتمية، أم هو مطية دور الفرد؟ والحرب، هل تصلح للتساؤل، إذا ما كانت عادلةً أو غير عادلة؟ وهل هي حرب تحرير في إزالة طاغية لا يمكن أن يُزال إلا بالحرب؟ أم هي حرب احتلال، تخفي أطماعا؟

وأين هو، شاعر الكلمات، من مشهد الجحيم هذا، الذي تُهرس فيه الجثث، آلاف الجثث وراء دخان الحرائق والقنابل؟ لا شك أن كلماته تلاشت، أو استترت حياءً. وأصبح الشاعر، رغبةً بالتوازن، إنساناً عراقياً، مثل أي عراقي منفي وسط عائلته، أو وسط وحدته، أمام شاشة التلفزيون. إنه لا يطمع الآن بالتفرد، ولا يرغب في أن يرى رؤىً. إنه

يشعر بالحرج من ذلك، أمام نفسه. يرفع التلفون كل ساعة ليحادث عراقياً آخر، يُشعره بأنه مثله، معرض لريح الأقدار، وأنه مثله عار من الكلمات والرؤى. ولكنه، في اللحظة ذاتها، يخفي مشاعر غاية في التعقيد، لا تليق إلا به. مشاعر إنسان الكلمات والرؤى. حتى ليحسب، في سره، أن مشهد الجحيم الذي يطل عليه من شاشة التلفزيون، ليس إلا واحدة من هذه الرؤى، تطل من عالمه الداخلي! فيأخذه الفزع وتبتل تجاعيد جبهته. إنه في قلب العتمة، وفي قلب الضياء في آن. وهو يتحرَج من أن ينتسب لأحد منهما. إنه يعرف سر شاعريته، وليدة وحدة الأضداد. عراقي قطع شوطاً طويلاً مع عتمة الليل، وفي الليل أقمار ونجوم. وهو يقبل على نهار لا يخلو من احتراقات ظهيرة وظمأ. ويشعر أن ما يستحقه من مكافأة على سنوات الموت المجان، لا بد آت، يحسه بأطراف أصابعه وهي تتلمس وجنته المبتلة بالدموع.

إنه يشعر برضا عن عدم صلاحيته لكتابة قصيدة عما يحدث، لأنه ليس شاعر عقيدة، ورأي ثابت كراية. بل هو شاعر الإنسان، الذي يقف الآن أخرس من الروع.

قصيدته تختمر داخل الأتون.

٢

بين الساعة السابعة وقرابة الثامنة صباحاً من يوم الأربعاء، هذا، لم أر وأسمع جديداً في أخبار التلفزيون التي لا تنقطع. هجرته وانصرفت إلى ما يشغلني في هذه الساعات العراقية الخالصة. في العاشرة فتحت التلفزيون لأطل على معجزة. على حلم يحطم إطار المستحيل ويفلت

ليصير حقيقة عيانية. رأيت عراقيين في الشوارع يحيون جنود الحلفاء، يرفعون قبضاتهم ويهتفون صدام عدو الله! .

رأيت عراقياً كهلاً أشيب، بنظارة طبية ودشداشة أبناء محلتي، يرفع صورة زيتية لصدام حسين، كان يبدو قد انتزعها من إطارها في شارع عام. يرفعها بيده اليسار، وباليمين يرفع نعاله الجلد، ويجلد به وجه الطاغية المبتسم. يضرب ويصرخ أمام الناس وعدسة الكاميرا، ليقول ويفعل شيئاً يعرف أنه لا يطفئ ظمأ ولا يشبع من جوع. يعرف أن الكلمات، ونعاله الجلد عاجزان عن إطفاء حرقة قلبه. رأيت المارة يساهمون في التعبير معه عن قصور ذات اليد. فأية كلمة وأية جلدة نعال تكفي للشفاء من تنكيل، وإذلال، وتعذيب، وقتل، وتهجير، ونفي، ثلاثين عاماً تحسب حساب الثواني!

رأيت شباناً وأولاداً يقفزون على مدرعات ودبابات الحلفاء، وكأنهم في أحضان أمهاتهم، آمنين من كل سنوات الرعب، ومطمئنين إلى هذا الفراغ في الزمان، الذي فتحته لهم القوة الأمريكية.

الفراغ الذي لم يحدث يوماً في معتقل العقائد الإسمنتي، وما كان ليحدث في السنوات المئة القادمة. فراغ في الزمان يُفتح تحت شعار أممي أو قومي أو ديني، في انقلاب تقوده عصابة من حزب أو عسكر. فراغ من زمان جاء بمحض المصادفة لصالحنا هذه المرة. فراغ أتاح للكهل الأشيب أن يرفع نعاله الجلد ويجلد وجه القائد المناضل، ورمز العروبة، وحارس البوابة الشرقية صدام حسين. يجلده وكأنه يجلد زمناً برمته، زمن العقيدة العمياء المضمخة بالدم.

٣

الإعلام العربي والمثقفون العرب ـ إلا قلة قليلة ـ كتبوا أناشيدهم باسم بغداد البطلة، المقاتلة ضد الاحتلال. وسجلوا إداناتهم لجواسيس وعملاء الدولار. وجلسوا على حافة أدبهم و مواقفهم المناضلة يترقبون وينتظرون. إلى أن خرج إليهم رجل الدشداشة الكهل بنعاله الجلد. وفقراء مدينة الثورة بأزهارهم. والنساء والأطفال، خرجوا من بيوت البصرة والناصرية والنجف وكربلاء والحلة والعمارة والكوت، وأخيراً بغداد، يهتفون بسقوط الطاغية، ويهللون للجنود الأجانب.

وهنا خابت أناشيد الإعلام العربي والمثقفين، العرب ـ إلا القلة القليلة ـ واستدارت إلى مقاتلي الحرس الجمهوري، وحرس صدام الخاص، وفدائيي صدام، وميليشيات البعث؛ لأن هذه الأناشيد الحافلة المحتفلة بخصائص البطل المناضل لا تليق بالعراقي الضحية، بالعراقي الذي اعتقل وسجن، وأعدم، ودفن حياً، وذوّب بالأسيد، ورشّ بالمبيدات، وانتُهب، وانتُهك، واغتصب، وهُجّر، وشُرد. إنها لا تليق بالمستضعف المذعور المهان، بل تليق بالمسلح الذي وقف في وجه الأعداء مدافعاً عن بغداد (بغداد صدام وفدائيي صدام، لا بغداد الكهل الأشيب ذي النعال الجلد، ولا بغداد أطفال مدينة الثورة، أو الشبيبة المقهورة).

الشعراء المناضلون جلسوا على حافة قصائدهم وأدبهم ينتظرون، فرؤوا أبطالهم المدافعين عن بغداد يتلاشون أمام المجنزرات الأمريكية. ورأوا ـ يا للدهشة ـ كل الشعب الضحية (من خونة العروبة، والعقيدة، وعبيد الدولار) يخرجون يداً بيد مع الأجانب إلى صور وتماثيل الدكتاتور، وكأنهم يخرجون من بطون أمهاتهم من جديد إلى حياة تشبه الحلم، الذي يوشك على التحقق.

٤

في هذا الأربعاء افتقدت صورةَ وصوتَ وزير الاعلام الصحّاف. كان آخر حضور للإعلام الكاذب، والوجود العقائدي الخادع، وخيانة الإنسان لشرفه وللحياة. افتقدت مباهاته بدحر الأعداء المحتلين، والخونة المأجورين من العراقيين ومفاخرته بالقيادة الرشيدة، وبالرجال الذين يفتدون القائد وبغداد والعراق بأرواحهم. افتقدت نشيده المناضل، على أني أجد في صوت الإعلام العربي، وصوت المثقف العربي، ما ينوب عنه ويعوض عن غيابه.

(١١/٤/٠٣)

للأجيال التي تصغرني أقول!

١

المثقف العربي التقدمي ونظام السلطة العائلي العربي يتحصنان وراء متراس إعلام عربي واحد، ساهم كل منهما في صياغته، بعتمد عادة إشاعة الحذر من المعسكر الغربي (الإمبريالي، الاستغلالي، والشيطاني)، كما يعتمد سلاحا واحدا في وجه الإنسان العربي، هو سلاح التهمة بالعمالة لهذا المعسكر، والخيانة والارتزاق بفعل سحر الدولار!

اقرأ صحف الدولة، وصحف الأحزاب التقدمية، ومقالات الأدباء والشعراء التقدميين، في العقود التقدمية الأربعة الأخيرة، فسترى المتراس ذاته والتهمة ذاتها. والفوارق لا تتجاوز القدرة على التفنن في أساليب الخطاب.

إشاعة الحذر من المعسكر الغربي الشيطاني ما كانت لتتوازن لولا كفة الإيمان بالمعسكر الشرقي الاشتراكي الرحماني. كان هذا الإيمان يغذي ذلك الحذر بأمصال الكراهية العمياء، التي لا تنتسب للعقل والمنطق. والسبب أن العقيدة التي تعزز الإيمان بالاشتراكية تجعل المثقف التقدمي والمعسكر الاشتراكي يحتلان مكانا غير مرني في الزمن المستقبل. ولا

يشجعان على الاكتراث بواقعهما الأرضي في الحاضر. إن إلغاء الحياة الحاضرة لمئات الملايين من شعوب روسيا، والصين، وكوريا، وبلغاريا، وتشيكوسلوفاكيا، وبولندا، ورومانيا...، وتغييبها في المستقبل اللامرئي، قاعدةٌ في صلب النظرية الثورية. إن مقتل الملايين تحت قبضة ستالين، والتنكيل بملايين مثلهم في معسكر الاعتقال الاشتراكي، وإبادة الفكر والمفكرين، والكتابة والكتاب، والفن والفنانين، منذ الأربعينيات حتى الثمانينيات، لا يستثير ارتعاشة جفن لدى المثقف التقدمي. إنه شيء ينتسب للحاضر، الذي يتطهر باتجاه المستقبل. ولكن هذا المثقف التقدمي لا يغمض جفنا عن أية خطيئة تُرتكب في حاضر المعسكر الغربي الشيطاني. والسبب ببساطة أن هذا المعسكر يعيش الحاضر ولا يوتوبيا له.

هذا شيء جوهري في نظرية التقدميين وليس عارضا. والعداء للغرب وحضارة الغرب قد يزداد تماسكا بفعل انهيار المعسكر الاشتراكي، وليس العكس. لأن هذا الانهيار، في الوعي الطوباوي للنظرية الثورية، إنما هو انزياح للمستقبل. فقد هجر المعسكر الاشتراكي الرحماني هذا الحاضر، بفعل ضغوط المعسكر الشيطاني، وانتسب للمستقبل. وهو ينتظر البشرية هناك. أما القتلى، والمنكل بهم، فهم ثمار شجرة التهمة المقدسة. ولا قيمة لهم بالمطلق.

٢

في هذا المنطق الطوباوي تكمن علة: إن تجربة العذاب التي امتدت عقودا في المعسكر الاشتراكي لم تشكل درسا ولو عابرا في عقل وقلب

مثقفنا التقدمي. فالذي يغمض جفنا، وعقلا، وقلبا، عن النزيف الإنساني لدى هذه الشعوب، وطاقاتها المبدعة، قادر على إغماض جفنه عن نزيف شعبه وطاقاته المبدعة، ما دام يملك سلاح التهمة المقدسة. فالمتهم يُقتل، ويُنكل به، ويُباد، ويُشرد بحكم هذه التهمة المقدسة. هذا ما حدث مع إخماتوفا، تسفيتايفا، مندلستام، باسترناك، شوستاكوفتس، برودسكي، ومئات وآلاف مثلهم داخل وخارج روسيا، وتحت راية الثورة ذاتها.

المثقف التقدمي لم يتعرض، تحت ضغوط الحكم الدكتاتوري العقائدي، لتهمة الخيانة، والجاسوسية، وبيع الوطن بالدولار. لأن هذه التهمة تنتسب لخزانة أو قاموس الحكم الشمولي، كما تنتسب لخزانة أو قاموس المثقف التقدمي. إنها ملكية مشتركة لكليهما. المثقف الثوري يتعرض للملاحقة والتنكيل والقتل تحت تهمة المنافسة على نظام الحكم فقط. أما تهمة الخيانة والجاسوسية، وبيع الوطن بالدولار، فهي من حصة الآخر غير العقائدي. الآخر الذي يتمتع بعقل حر غير معتقل، لأن كل معنى للحرية واللاانتماء إنما تنتسب بالضرورة إلى معسكر الغرب الشيطاني. وإن أية مقارنة بسيطة بين ما يكتبه مثقف أو شاعر سلطة البعث المناضل ضد مثقفي المنفى، وما يكتبه مثقف وشاعر اليسار التقدمي المناضل ستكشف عن قاموس واحد. كلاهما يستخدم التهمة ذاتها، بسبب حضور العدو المشترك لكليهما، ألا وهو معسكر الغرب الشيطاني.

إن كل حركة تصدر عن المعسكر الغربي، داخلية كانت أو خارجية،

هي حركة شيطانية. حتى لو كانت باتجاه إزالة حكم دكتاتوري دموي مظلم كحكم صدام حسين.

٣

إن هيمنة هذا العقل المعتقل امتدت عميقة في تأثيرها منذ الخمسينات. تطابقت فيها سلطات الدولة وسلطات الشارع بصورة تكاد تكون تامة. سلطات الدولة بهيئة أحزاب ثورية، أو عسكريين ثوريين جاؤوا بفعل انقلابي، أو بهيئة ملكية انتفعت من التسلط العقائدي الثوري. وسلطات الشارع بهيئة الأحزاب الثورية المعارضة. السلطتان مختلفتان في الظاهر ومتطابقتان في الجوهر. ولقد انعكس هذا الاختلاف والتطابق بصورة شيزوفرينية في المثقف الثوري، لسبب جد طبيعي. لأن هذا المثقف الثوري هو الذي أسس لثقافة الإعلام، التي تربى عليها وتغذى منها جيلا بعد جيل. وثقافة الإعلام هي ملك السلطة في نهاية الأمر.

واحدة من أبرز مظاهر الشيزوفرينيا الثقافية نجدها في الدعوى المصوتة التي لا يكل المثقف الثوري عن تكرارها، منهما رجال السياسة وزعماءها بأنهم ساهموا بتضليل الناس واستخدام لغة إيهامية تعلن انتصارا لا وجود له، أو تحزم البطون لتضحيات كاذبة. إن أية مراجعة اليوم لشعراء اليسار الثوري المناضل سيكشف عن طاقة للإيهام لا تجاريها طاقة السياسيين.

إن كل قيم شعر اليسار الثوري المناضل مستمدة من، أو مشتركة

مع، قيم ثقافة الإعلام الرسمي، والحزبي العقائدي. فبطل هذا الشعر منتزع من يوتوبيا *الثورة الدامية: أشرف الناس، وأصبرهم*، وأصلبهم أنه لا ينتسب للناس في ضعفهم وخوفهم وتعرضهم للهزيمة والانكسار. على العكس، نقع في شعر التيار الثوري المناضل على أشنع القصائد تشهيرا وتنكيلا بالإنسان إذا ما تعرض لهذا الانكسار ولهذا الضعف. ولعل قصيدة اعتراف لمظفر النواب أبرز الشواهد على ذلك.

هذا الشعر يتمتع بقوى إيهامية لا تجاريها لغة ومخيلة وبلاغة السياسيين. إنه وضع الإنسان العربي على جبهة القتال دون سلاح، سوى سلاح الوهم. كما وضع الإنسان العربي على مشارف حضارة حديثة لا يملك من وسائلها سوى ادعاء التكافؤ. كما أنه حشا الإنسان العربي بمشاعر الذنب وهو غير مذنب، ومشاعر الاستعداد دون عدة. واستعداه على كل عناصر بناء الحضارة والحياة المدنية، مثل: المؤسسة، والدولة، والقانون، والعقل. وأوهمه أننا في زمن الآلة، وزمن السوق وزمن المصارف، واستعداه عليها، وهو يعرف كما أعرف إننا لا نملك آلة، ولا سوقا ولا مصارف، بالمعنى الذي تملكها الحضارة الحديثة.

هذا الشعر، بسبب عمى العقيدة، صار شعر كراهية، يتزاحم فيه الأعداء: من الخائن والجاسوس، والتاجر، والبيروقراطي... إلى الأعور والخصي. حتى ليعجب أي قارئ خارج حدود ثقافة إعلامنا المريضة، أية علة يخفي هذا الشعر العربي، حتى يصبح على هذا القدر من الشذوذ؟

الذائقة العربية، جيلا بعد جيل، ولدت ونشأت تحت وطأة هذه المعايير، التي احتلتها ثقافة الإعلام الثورية من المحيط إلى الخليج.

وعبر نصف قرن، صارت الناس تعرف الشعر بهذا المقاس وهذا النفس. ومعيار جودته يقاس بمعيار استجابتها المفعمة بالحماس الناري للاقتحام، والتحدي، والاحتقار، والتعالي، والعنف، والرفض، والكراهية، والإدانة، والاتهام. وكل هذه الاستجابة متوجهة لآخر عدو بالضرورة. حتى لتحسب الإنسان فيها متهما إلى أن تثبت براءته.

لك أن تتخيل مناخا شعريا بكل هذه العناصر، وقد أطبق على حياة بائسة قرابة نصف قرن!

القارئ العراقي والعربي لم يحصل على فرصة تقوده إلى الشعر الصحي، إلا في خلوته النادرة الموحشة. وإذا ما اطلع على شعراء لغة أخرى فسيقرأهم غائب الوعي، كما يشاهد فيلما غربيا، شاعرا أن الذي يقرأه ويشاهده إنما هو طارئ من كوكب آخر!

الخلوة النادرة الموحشة يحققها للقارئ شاعر مثل السياب أو البريكان. حيث الإنسان في قصائدهما هو العاطفة المقدسة والعقل المقدس. وما من راية في شعرهما تعلو على قامة الإنسان.

٤

للأجيال التي تصغرني أقول، ونحن على هذا المفترق التاريخي: إن هواء الخلوة الموحشة يكفي رئة الشاعر الحقيقي. الشاعر الحقيقي يحس بالفطرة مقدار فساد وعفن الهواء الذي يتنفسه. ولا أحسب أن أحدكم يعجز عن تأمل هواء النفق الذي قطعناه، نفق معترك العقائد المضحية بالإنسان من أجل المبدأ، وكم هو مقدار العفن فيه؟

للشاعر الذي يصغرني أقول: إن قصيدتك الآتية إنما تخرج من مليوني ضحية، وخمسة ملايين مشرد، وآلاف الخرائب. قصيدتك التي لم تُسهم في التأليب على هذا الخراب، لا بد من أن تكون قصيدة مرثية. والمرثية تطهر الشعر من الكراهية، وتطهر النفس.

الشاعر الحقيقي ذو عقل طليق. ولا يملك العقلَ الطليقَ إلا من عرف وتأمل ظاهرة العقل المعتقل.

(٠٣/٤/١٨)

إعادة الاعتبار للحياة

الآن، يدخل عراقُنا المتعبُ، المضطربُ، القلقُ، طريقَ حريته. الخارطة التي أمامه تبدو، بالضرورة، متاهة. ثقافتنا التقدمية علمتنا لنصف قرن أن نتعامل مع الحرية ككلمة، وفكرة. وها هي تفاجئنا كفعل. فما العمل؟

المحيط العربي مذعور من فعل الحرية، الذي تجسد في الإطاحة بأعتى دكتاتورية عرفها العرب والعالم. مذعور لأن فعل الحرية أطاح بـ "كلمة" و"فكرة" الحرية المصنوعة بدأب من قبل الإعلام العربي الثوري. هذا الإعلام صنعها لكي تكون مقدسة، ليس للناس إلا خيار أن يكونوا ضحاياها. إنها حرية الموت، وابتذال الحياة. فعل الحرية، على العكس، لا قداسة فيه. إنه فعل المصلحة، الذي يقود الإنسان إلى ما ينفعه، من أجل حياة يكون فيها سعيداً، كريماً، معافى.

إن أي احتمال لثورة أو انقلاب من قبل حزب أو قائد عسكري، على ما فيها من استحالة، ما كان ليحدث داخل العراق إلا وهو طالع من كلمة وفكرة الحرية المقدسة هذه. ولذلك سيرتفع الحزب أو القائد مع كلمة وفكرة الحرية المقدسة، مثل سيف على رقاب الناس من جديد، ليواصل المسيرة التي قطعتها الثورات والانقلابات من قبله!

الآن جاء فعل الحرية من الخارج. جاء من مصلحة الحياة الواضحة لا من قداسة الكلمة والفكرة الغامضة السرية. جاء من القوة الأمريكية التي رأت، لحسن حظ العراقيين، خطورة كامنة في دكتاتورية صدام حسين. فوعدتهم بالقضاء عليه وتحريرهم. فهلل العراقيون لذلك، واستعدوا لتبادل المصالح، التي لا يرون فيها عيباً. ولكن بين العراقيين من هو مستعبد، بفعل تقادم الزمن في العيش مع ثقافة الإعلام الإيهامية، من قبل قداسة الكلمة والفكرة القديمة. لا يستطيع أن يقاوم سحر عبودية الإيمان بـ "الفكرة"، التي شغلته كل عمره بتوزيع الحياة إلى أعداء، وحلفاء خالدين. إلى شر وخير، ظلمة ونور، اشتراكيين ورأسماليين.

حين وصل جاي گارنر إلى كردستان استقبله الأكراد العراقيون بالزهور والأناشيد امتناناً. الأمر الذي لم يحصل عليه من بعض جماهير بغداد. والسبب لا غموض فيه. فالأكراد عاشوا فعل الحرية، وهو فعل متداخل مع فعل المصلحة، الذي يقود الإنسان إلى ما ينفعه من أجل حياة يكون فيها سعيداً، كريماً، معافى. بعض جماهير بغداد من الكتل المسبية داخل معتقل الإيمان الإيهامي (أو المدفوعة من قبل بقايا النظام المنهار أو من قبل الأنظمة المجاورة، التي يهددها الوجود الأمريكي أو الديمقراطية المأمولة!) ما زالت تنطلق من كلمة وفكرة الحرية التي لم تمس الأرض يوماً. ما من علاقة لديهم بين فعل الحرية الذي يرونه حياً على الأرض العراقية والذي جاء به الأمريكان، وكلمة الحرية التي يقدسونها في محراب العقيدة الثورية، والتي يُعتبر العداء للأمريكان جوهراً فيها.

إن انتزاع هذه الكتل البشرية من محراب العقيدة الثورية إلى

مصلحة الحياة، من كلمة الحرية و فكرتها المقدستين إلى طلاقة فعل الحرية ليس بالأمر الهين. فوراء الظاهرة عقود من غسل الأدمغة مارستها الثقافة التدميرية للأحزاب الثورية، أممية كانت أو قومية أو دينية، والثقافة التدميرية للمؤسسات الإعلامية النظامية المنتفعة منها.

ما نحتاجه حقاً هو إعادة اعتبار للحياة وللإنسان. ولن يقدر على هذا غير المثقف في تأمله من جديد بمعنى الثقافة ومغزاها وهدفها.

(٢٥/٤/٠٣)

بالروح بالدم

اعتدنا، في عقود الإيمان بفكرة الثورة، على الشعار الذي يخرج من اليوتوبيا وأحلام العقيدة، ويعتمد فكرة الفداء الدموي، ويتوجه إلى تدمير العدو المفترض. اليوم يحق لنا، بعد خبرة الفشل السوداء، أن نختبر طريق التطور الطبيعي، حتى لو كان بطيئاً. كل الشعارات التي ازدحمت بها عقود الإيمان بالثورة كانت موضع تندر، من قبل المثقفين والناس جميعاً. ولكنها كانت ملاذاً في وقت الحاجة أيضاً يلجأ إليها المثقفون والناس حين يرون أنفسهم عند سدة الحكم، أو على مقربة منها !

في زمن البكر البعثي كان الشعار: "بالروح بالدم نفديك أبو هيثم" يليق بالمرحلة الثورية، التي تتطلب خديعة بضرورة الفداء الدموي للمقدس. الشعار أصبح أكثر لباقة مع مرحلة صدام حسين: "بالروح بالدم نفديك يا صدام"، إذ إن صدام حقق بالفعل ما انطوى عليه الشعار على الصعيد العملي، إذ جعل بقاءه كتجسيد للمقدس تاج فداء دموي متواصل من قبل المخلوقات الإنسانية الفانية.

الحدث الذي أنهى الدكتاتورية الصدامية وحقق واقعاً لا بعث ثورياً فيه، وحلماً كان مستحيلا، لم يحدث عن طريق ثورة انقلابية، بل حدث عن طريق مساعدة خارجية. ولكن بعض المؤمنين بعقيدة الثورة الإسلامية

ذات الطابع الانقلابي، وجدوا أنفسهم على المستوى ذاته من الحرص على جوهر الشعار الخالد، طامعين بقطف ثمرة التحول الذي جاء نتيجة تدخل خارجي، لصالح أحلام الثورة الانقلابية الدامية، ولذلك سمعنا الشعار ذاته يتردد من جديد: بالروح بالدم نفديك يا إسلام!

المدهش أن رجال المعارضة المدنية في الخارج، حين وجدوا الطريق معبداً أمامهم في التوجه إلى بغداد، رصدتهم كاميرات التلفزيون وهم يهتفون في احتفالهم داخل القاعة: بالروح بالدم نفديك يا عراق!

مرحلة التحول الكبرى هذه، التي لم تحدث عن طريق ثورة انقلابية ولا على يد ثوريين انقلابيين من حزبيين أو عسكريين، ولم تخلف بالتالي مَنّاً وديناً يعلقهما هؤلاء على رقاب الناس حتى يدفعوا ثمنهما غالياً من أرواحهم ودمائهم، تستدعي مراجعة عميقة للجذور الكامنة في الشعار المرفوع. الشعار المرفوع لا يخفي نزعة دموية فقط، بل هناك أكثر من طيّة تدميرية فيه. هناك رغبة في إحالة المجسد المحسوس إلى كيان مجرد من أجل تقديسه أولاً، ثم القيام بمهمة تقديم الإنسان أضحية وفدية له، عن طريق سفك دمه وإزهاق روحه.

المفترض بأبي هيثم وصدام والإسلام والعراق أن يكونوا حضوراً أرضياً قادراً على صيانة دم الإنسان وروحه من السفك والإزهاق، ولكن الإيمان الأعمى بالعقيدة المجردة عادة ما يتحقق على حساب الإنسان، الذي خلقت كل عقيدة من أجله. وفي طليعتها العقيدة السماوية.

الجميع يعرف أن الشعارات الأربعة واحدة في جوهرها، ولم تتغير إلا القافية!

(٢/٥/٠٣)

صلاة أبي وهالة الدين المقدسة

بعد الثورة الإسلامية في إيران، وبعد أن تجلت صورةُ السيد الخميني في هيئة المبشر السياسي بعصر الثورات الإسلامية، لم تعد الزعامة الروحية تنطوي على الدلالة القديمة ذاتها. المعنى الروحي داخل الحوزة العلمية هو أشبه بهالة القديس التي اعتدناها، نحن المثقفين، في اللوحات الفنية الخالدة، أو بالهواء المعطر الذي تتمتع به المعرفة الدينية دون المعرفة الدنيوية.

الشعر والفن كانا، بالنسبة لنا نحن الشعراء والفنانين، وسيطاً مرتبكاً، مرتاباً بينهما. فمن يجرؤ على اليقين بالشأن الديني أو الشأن الدنيوي؟ ولذا اخترنا التساؤل المتشكك المرتاب، الذي لا يستقر داخل دائرة مطلقة الاكتمال ومغلقة.

كان رجال الدين المتصوفة، ورجال الدين الفلاسفة، ورجال الدين الفقهاء، يعرفون أي رابط رقيق واهن بين الدنيا والدين. ولذلك كانوا يُعنون بهذا الرابط كما يُعنون بزهرة غاية في الرقة. يخشون عليه من الظل الذي يقارب العتمة، ومن الضوء الذي يقارب اللهب. اليوم دخلت الدنيا في الدين والدين في الدنيا، وصارت دماء الضحايا النازفة الرابطَ الوحيد الذي يجمع بينهما ويغذيهما معاً!

كانت الأحزابُ الثورية والانقلابية في عصرنا العربي الحديث تستعير هالةَ القداسة من العقائد الدينية وتضعها فوق رأس مبادئها الدنيوية، حتى أصبح الحوارُ بشأن مبادئها من المحرمات، وأصبح أعلامُها شأن الأنبياء والأئمة. واليوم تخرج الهيئات الدينية تاركةً هالةَ القداسة في الحوزات العلمية، لتستعير بدلها هالة قداسة دنيوية من الأحزاب الثورية والانقلابية ، معززة بأسلحة فتاكة، مستخلصة من الغرائز والمشاعر العمياء الخام للجماهير الجاهلة المسكينة .

كان أبي يختم صلاته دائماً بطلب الستر والعافية. ما كنت أتوقع أن دعاء رجل دين مثل السيد الحكيم بعد عودته لبلاده، بلاد المقابر الجماعية والموت المجان، في محنة الفوضى والعنف وشيوع الحرائق، سيكون على خلاف دعاء أبي هذا!

مات أبي الشيعي المؤمن بالهالة المقدسة قبل الثورة الإسلامية في إيران بسنوات طويلة.

(١٦/٥/٠٣)

الكتاب المقدس والكتاب الأرضي

لو شاءت الأقدار أن تستجيب لحلم إفلاطون في تحقيق جمهوريته على الأرض لتحولت على يد فلاسفته الحاكمين إلى جحيم حقيقي. على أن قراءة هذه الجمهورية ككتاب تعتبر متعة رائعة، ومصدر غنى فكري، خبرهما كل قارئ جدي للفكر الفلسفي.

هذا الحكم يصلح على كل الكتب التي تنطوي على رؤى شاملة، ومطلقة بشأن الصيغ الأمثل لإقامة المجتمع ولبناء الدولة. رؤى اليوتوبيا عادة ما تطل من فوق، من المُثل، على الإنسان ابن الأرض. إنها محض تطلعات الإنسان نفسه، القاصر، إلى ما يمكن أن يكون عليه لو أنه تطابق مع أحلامه. ولكن هيهات!

الأديان جميعاً نجحت في بناء علاقة روحية بين الإنسان وخالقه، ولكنها لم تحقق النجاح ذاته في بناء مجتمع عادل، أو حكومة عادلة. ولكي نرصد صلاحية هذا الحكم علينا أن نلجأ للتاريخ لا للمثل الدينية الرفيعة، للخبرة لا للبراءة. إن براءة الطبيعة التي عصفت بأرواح الرومانتيكيين ذات قابلية على التدمير والأذى، إلى أن روّضها الإنسان بالعلم، وجعلها في خدمته. هذا الترويض مازال يجرح الرومانتيكيين ويثير شجونهم. ولكن هذا الجرح والشجن زودنا بحصيلة غنية من روائع

الآداب والفنون. لقد حقق الإنسان بذلك توازناً نافعاً بين حاجته الروحية والأخرى الأرضية. إن التاريخ و العلم و الخبرة صفحات مليئة بالشوائب، وبما لا يرضي. ولكنها صفحات من صلب الوجود الإنساني. والمثل الدينية، والطبيعة، والبراءة ، صفحات مليئة بتجليات صافية وبما برضي. وهي الأخرى صفحات من صلب الوجود الإنساني. ولكن شتان في الأدوار والأولويات بين الصفحات الأولى والثانية!

الخبرة التاريخية تقول بأن قرابة قرن من محاولة تطبيق النظرية الشيوعية على الأرض، وبناء دولة ومجتمع عادلين، لم تقدم للبشرية إلا تغييباً مطلقاً للشعوب المسكينة، وحملات إبادة جماعية للجنس البشري، ومظاهر مريعة للحكم الشمولي القاهر، وللدكتاتوريات. هذه الخبرة الدامية لا شك تكفي لإعادة كتاب الشيوعية إلى مكانه على الرف، بين الكتب الخالدة. بحجة أن الحلم لم يتطابق مع الواقع بصورة صحية. هذا إذا ما تعاملنا معه ككتاب أرضي من صنع البشر أنفسهم. أما إذا رفعناه إلى مصاف الكتب العقائدية ذات المسحة المقدسة، فما علينا إلا أن ننتزعه من مكانه ونلحقه بصفحات المثل الدينية، والطبيعة، والبراءة. ليقوم على الأقل بدوره في خلق التوازن الذي أشرت إليه بين الحاجة الروحية والأخرى الأرضية.

الكتب المقدسة ليست كتباً أرضية، إلا للحد الذي يحفظ لها مكانتها وجلالها الروحيين. وكونها غير أرضية لن يخل بمكانتها الأرضية بين البشر.

على صعيد الخبرة الأرضية لم تعد صورة الثوري الدنيوي، بعد أن أصبحت فكرة الثورة في عصرنا الحديث تُقرن بالدماء، والجريمة،

مستساغة ومقبولة دون ارتجافة من موطن الضمير الراقد. فكيف هي صورة الثوري الديني، الذي اعتاد رفع قبضته وسبابته المنذرة فوق هالة عمامته الوقورة؟

(٠٣/٥/٢٣)

الرغبة الشيطانية

إن الشكوى من الأمريكان في تباطؤهم وتردد خطواتهم لا تتعارض مع الاعتراف بأنهم قوة تحرير لشعب منتهك، لا حول له ولا قوة. وإن الضيق بالمعارضة العراقية، التي تستنفد الوقت الثمين والحاسم بالتنافس على المواقع والمناصب، لا يتعارض مع اعتبارها قوى بديلة بادرت بوقت مبكر لمحاربة سلطة الدكتاتور وبعثه الغابر. وإن النظر المحترس غير المطمئن إلى الكفاءات والطاقات الفردية العراقية في حقول الصحافة والإعلام والسياسة، التي تسعى يداً بيد مع الأمريكان، أو دونهم، باتجاه العمل لما تراه حياة عراقية جديدة، لا يتعارض والتعامل معها كريادات مفعمة بالنشاط لوضع لبنات البناء الأولى.

عادة ما نرى بين العراقيين من يشكو بمرارة من الأمريكان، ويضيق بفساد المعارضة، ويحترس بغير اطمئنان من اندفاعة ذوي النشاط والرغبة. ولكن هذه الشكوى والضيق والاحتراس مشاعر إيجابية طبيعية لدى النسبة الكبرى من العراقيين، لأنها وليدة رغبة متحرقة لضمانة حياتها الحرة الكريمة المتعافية القادمة. ليست فيها شائبة الرغبة المضادة، التي تأمل برؤية عراق خرائب وموت جماعي وحروب أهلية، فقط من أجل أن تكون هذه المصائب ذريعة لإدانة الأمريكان والمعارضة والكفاءات الناشطة.

هذه الرغبة الشيطانية تكاد تكون مشتركة، بالنظر إلى ما حدث ويحدث في العراق، بين نسبة ليست قليلة من المثقفين العرب، المعبئين بعبوات المشاعر القومية والثورية الناسفة، وبين أشباههم من ذوي النزعات العقائدية المغلقة العمياء من العراقيين. كلاهما يسعيان بحماس، ومن حيث لا يعرفان، إلى مزيد من الخراب والموت.

نحن العراقيين نعود، بسبب المحنة الكبرى والموت الجماعي المجان، إلى الأرض والواقع ثانيةً، أو لأول مرة ربما. نعود بعد جحيم سلطة العقيدة: من أفق النظرية المقدسة التي تضحي بالإنسان، إلى تربة الإنسان وواقعه الأرضي، إلى الاحتكام للتجربة، وتلمس مصلحة يومنا بالأصابع. نملك الحق في أن نشكو من الأمريكان، ولكننا نعرف عن ثقة بأن شكوانا لن تمتّ بصلة لأي معنى من معاني العداء والكراهية اللتين ورثناهما كعقيدة عمياء مع حليب الرضاعة، بحيث تجعلنا ننكر، كما ينكر أعمى حقيقة الألوان، بأن قوة التحالف العسكرية هي التي أطاحت بسلطان صدام حسين، وجعلت كل قواد المسيرة جرذاناً هاربة من بين خطواتنا الطليقة المتباهية. في حين كانت قبل أشهر فقط مصدر رعب يُخرس الصوت، ويعطل الفكر، ويجفّل الدم في العروق.

واليوم، كما في الكوابيس المضحكة، نرى بين العقائديين العراقيين، من يكتب أو يخرج صارخا ضد الأمريكان، مهدداً، وبشجاعة مثيرة لا تملك ذاكرة، قادرة على العودة أشهراً قليلة إلى الوراء.

(٠٣/٥/٣٠)

جحيم المعجزة اللغوية

لنتابع قناعات المثقفين العرب والعامة من الناس العرب، حين ينصرفون إلى هموم واقعهم الأرضي، ومصالح حياتهم اليومية. المدهش أننا نرى الإجماع يكاد يكون تاماً بشأن واقع التخلف، والتراجع، والانحدار، والانحطاط، وسطوة الديكتاتورية العائلية، وسيادة القوى الظلامية في الحياة العربية. وأن الإجماع يكاد يكون هو ذاته بشأن القناعة بأن هذا الواقع سيتواصل، ويتسارع باتجاه الأسوأ. والإجماع الأكثر إثارة هو أن هذا الانحدار لا سبيل إلى إيقافه، وهذا الظلام لا سبيل إلى ملاشاته. وحين يُسألون: ما العمل؟ يتنهدون ويلقون اللوم على المعجزة التي لم تحدث! إنهم لا يرون أملاً في حصول أي تغيير من الداخل في مجرى الانحدار، أو أي أمل في القوى الذاتية لشعبنا العربي، ولثقافتنا العربية، في تقديم بديل أو علاج!

العامة والمثقفون في انتظار معجزة لا سبيل إلى حدوثها. لأنهم يؤمنون عن حق أن زمن المعجزات تلاشى، منذ غابت الأسطورة ودخل التاريخ.

قناعات المثقفين والعامة من الناس بهذا الشأن حقيقية، وكلماتهم تتطابق مع الواقع تماماً. ولكن المشكلة تبدأ من الإحساس بضرورة حدوث المعجزة التي ننتظر، هل تُقبل من السماء، أم من الأرض؟

يبدو لي أن المعجزة العربية صارت تُقبل على الجمع من اللغة. وصار الجميع يطمئن مع السنوات لهذه اللغة التي تؤلب وتعد. الكتاب ثوريون في لغتهم، والجماهير متعلقة باللغة الثائرة، على منحدر عظيم الشارع منذ نصف قرن، ويوشك أن ينتهي بالهوة الفاغرة الفم. الكاتب السعودي عبد الله القصيمي أول الملتفتين لظاهرة المعجزة هذه، حين سمى العرب " ظاهرة صوتية ".

ما حدث للعراق، الذي لا يشبه جرحُه جرحَ قتيل سواه، خير مثال أضربه للقارئ الذي يُصغي: هنا بلد أوشك على نهايته، تحت وطأة أعتى احتلال من قطاع طرق مجهولين. جاؤوا من قلب أعتى فكر شوفيني وفاشي، عرفته المنطقة والمرحلة. قتلوا بالتصفيات الجسدية المنظمة مليوني إنسان لا حول له ولا قوة، وهجّروا إلى منافي اللاعودة قرابة أربعة ملايين. أدخلوا البلدَ المصاب بالسُل في أتون حرب لا سبيل إلى نهايتها. حوّلوا كل من استطاعوا من عربه إلى مرتزقة مذعورين، أو قتلة. وحولوا الأجناس والطوائف الأخرى إلى حقل تجارب للموت والإذلال. وضعوا على كل ثروة العراق الطبيعية والحيوانية والإنسانية ختمَ ملكيتهم الخاصة. دبّ الخرس في الكيانات الجافلة المذعورة، واختمر اليأس.

المثقفون والعامة من الناس اتفقوا، من داخل سويداء اليأس، وبعد فقدان الأمل بالمعجزة السماوية والمعجزة الأرضية، على أن يستسلموا لمعجزة اللغة المؤلبة الواعدة. اللغة الثائرة، الانقلابية، الرافضة، المتمردة، الطافحة بالمستقبل. هذه اللغة اللاعقلانية صارت مع الأيام مغرورة، فخورة، متعجرفة بفعل إحساسها الخفي بالعجز والضعف. صارت كياناً مريضاً مرضاً سايكولوجياً لا شفاء منه. تشبه الرجل الذي يتسامى عن الرغائب الجسدية بسبب العنّة. صارت معتادة على توهم جبروتها وقوتها

الخيالية، وتحتقر كل قوة وحضارة أرضية. صارت اللغة مرآة الكيان العربي من المحيط الهادر لغوياً إلى الخليج الثائر لغوياً.

الآن، وقد قطعنا شوط نصف قرن في المنحدر، نصل إلى نهايته، إلى الحافة التي تطل على الهاوية. الآن نحتاج إلى منقذ من خارج أنفسنا، وخارج كياننا اللغوي، وظاهرتنا الصوتية. الآن نحتاج إلى مصارحة النفس، وإلى الالتفات للآخر لطلب النجدة، واستغاثة المحتاج لا عيب فيها ولا حرج منها! لقد حدثت النجدة في العراق لا عن إرادة فينا واعية، ولا عن إحساس بالضرورة، إنما حدثت المعجزة الأرضية بفعل إرادة الحياة التي تحكم الأرض. وهذا أمر ستتذكره مع تنهدات الأسف ومشاعر الذنب، لأن هذه الاستغاثة والنجدة كانت واجبة الوجود منذ سنوات وعقود. جاءتنا القوة الخارجية أخيراً لتدفعنا مرغمين إلى الحياة الحديثة، إلى الحياة.

المثقفون العرب والعامة العرب مذعورون مما يحدث لعلة مرضية في النفس، هي وليدة العيش الطويل في بالون الظاهرة الصوتية والمعجزة اللغوية. فعربي الظاهرة الصوتية يفضل الفناء، على الاعتراف بالحاجة للنجدة والاستغاثة!

أما الأنظمة العربية فمذعورة لسبب أقل خفاءً من ذعر المثقف العربي، والعامة العرب.

ومن أجلهم جميعاً نأمل أن تلتفت هذه القوة والحضارة الخارجية لتحقق لهم، مرغمين، المعجزة الأرضية في الخلاص، بعد أن صرفوا العمر في المعجزة السماوية والمعجزة اللغوية.

(٠٣/٦/٦)

شاعر القضية

هناك إحساس لا يخدع بأن العد التنازلي قد بدأ، أو يوشك أن يبدأ، لتلاشي ظاهرة شاعر القضية. منذ مطلع حداثة الشعر العربي وهذا الإحساس يوارب، يهمهم بكلام ملتبس، بفعل الخشية، بأن الشعر لا يصلح للقضايا الجاهزة، أو أن الشعر لا يليق بالمباشرة، أو أن علاقة الشعر بالسياسة تستوجب الاحتراس... إلخ من كلام يفتقد إلى الجرأة والشجاعة والوضوح. الإحساس الذي لا يحب أن يخدع يذهب أبعد من ذلك. ولكنه لكي يفعل ذلك يحتاج إلى ظرف يفرض على الناس الجرأة والشجاعة والوضوح. هذا الظرف احتل العراق الآن مثل خفقة جناح لطائر يشبه طائر الشعر، إلا أنه دام. الآن يستيقظ ذلك الاحتراس الموارب الخائف من التهمة الجاهزة ليقول كلمته بشأن شعر القضية وشاعر القضية.

شاعر القضية لم يكن مورطاً، أو غافلاً عن القفص الذي اختلقه لنفسه. إنه، على العكس، مساهم فعال في صناعة هذا القفص، لأنه منتفع منه ومستفيد. ساهم في معمار ثقافة الإعلام، وداخلها ابتنى سلالم لمراتب الشعر التي تنتهي بالشاعر النجم، يتربع على قمتها. الشاعر النجم هو الذي يحقق لصالحه، وبنجاح، أكثر نقاط اللقاء مع

أهداف ثقافة الإعلام هذه. ولك أن تقارب على مهل بين أهداف شاعر القضية وأهداف ثقافة الإعلام، لترى كم مقدار الصحة في كلامي هذا. شاعر القضية وثقافة الإعلام يلتقيان عند فكرة المناضل. يلتقيان عند فكرة الثورة والحرية اللتين تخرجان من فاعلية المناضل - الفكرة. يلتقيان بالقضايا المصيرية: الاشتراكية، الأممية، القومية العربية، الوحدة العربية، فلسطين، الحرب الدائمة ضد المعسكر الغربي الاستعماري الإمبريالي، الشهادة والفداء، فضح الأعداء العملاء، التغني باسم الشعب، أو بالأحرى طليعته الوطنية، تغليب الموت باسم الحياة، والمستقبل باسم الحاضر. ثقافة الإعلام قد تنشغل باختلاق أبواق شعرية في هذا النظام أو ذاك، ولكنها لا تكترث بهم إلا في حقل نشاطها المحلي. إن شاغلها الأكثر جدية هو شاعر القضية النجم، الذي لم تصنعه هي، بل صنعها هو، أو ساهم في صنعها على مدى طويل. شاعر الثورة، وشاعر الحرية، وشاعر الوحدة، وشاعر المقاومة، وشاعر الرفض. حتى شاعر الحداثة والتجديد لم يفلت من مباركة ثقافة الإعلام والالتحام في فاعليتها.

الإحساس الجسور يعرف الآن أن فكرة الثورة في داخل رأس المناضل ثمرة فاسدة. والاشتراكية تبدو أكثر نقاهة وعافية في لندن. والأممية تتفجر من مظاهرات العالم الرأسمالي. وما رأينا شعباً أممياً في كل سنوات المعسكر الاشتراكي (بل شعباً مغيّباً!). والقومية العربية مصدر تشف وارتزاق. والوحدة العربية، شأن فلسطين، ذريعة للتسلط وتغييب الناس في مهاوي الخوف. والحرب ضد الإمبريالية مشغل لصناعة أتفه ما عرفناه من مظاهر الشيزوفرينيا عند المثقف العربي،

حيث يحلم الثوري وشاعر القضية، أو يحقق حلمه، بكل منافع وامتيازات المعسكر الرأسمالي العدو، ومن على مكتب حريته الرأسمالية يكتب كل قصائده الاشتراكية وشعر قضيته المقدسة. الإحساس الجسور يعرف أيضاً أن الشهادة والفداء إنما يتمّان عن طريق الفعل، وشاعر القضية شاعر كلمات، مهمته تأليب أبناء الخايبة للذهاب إلى الموت المجان، فيما هو ينعم بامتيازات النجم. مات السياب ممروراً، وعبد الصبور ملوماً محسورا، والبريكان قتيلا. ولم يمت، على حد علمنا، حتى آخر لحظات النضال هذه، شاعر قضية فادياً! والأعداء الذين كثروا في شعر شاعر القضية حدث أن غيروا من مواقفهم، فأين موقع العداوة؟ أما التغني باسم الشعب فأسوأ ما فيه أنه مغرض. ولك أن تقارنه بأغنيات داخل حسن، أو زهور حسين، التي لا غرض وراءها غير التعلق العفوي بالناس.

ما الذي بقي لشاعر القضية بعد كل الذي حدث؟ لقد حصدنا من قصائده مئات الآلاف من الجثث، ومئات الآلاف من الشبيبة الخائبة، ومئات الآلاف من الهاربين واللاجئين. مئات الآلاف من الأيتام والأرامل، مئات الآلاف من الخرائب، مئات الآلاف من النخيل المحترق، مئات الآلاف من الساعات العاوية تحت الشمس؟

لن نسأله: ألا يكفي ذلك؟ لأن ثمة إحساساً لا يخدع بأن العد التنازلي قد بدأ، أو يوشك أن يبدأ، لتلاشي ظاهرة شاعر القضية هذا. نحن نؤمن بأن موهبته كامنة خارج القضية، ولكننا نعرف أنه لن يتنازل عن مصلحته، مصلحة الشاعر النجم، الكامنة داخل القضية. إنه لن يضحي بمصلحته من أجل موهبة شعرية لا تحيا إلا في حقل الأسئلة، التي لا إيمان فيها ولا قضية.

مع تلاشي القضية ستتلاشى ثقافة الإعلام، وستتلاشى بالتالي إضاءة النجم، والجماهير الباحثة عن الحماسات الحمقاء. ستتلاشى الكذبة السوداء، التي تشبه معول السياب الحجري.

ولكن كيف يخمد الشعر الحقيقي داخل شاعر القضية. وكيف يُزهر، حين ينفتح، على أفق لا قضية فيه ولا فكرة مكتملة الدائرة؟ مسألة أرجئها إلى حديث قادم.

(٢٠/٦/٠٣)

ربَّ ضارة نافعة

الأعمدةُ الأربعة التي تركت ألفةً بيني وبين قراء عديدين في هذه الصفحة تبلغ نهاية شوطها مع جريدة " المؤتمر "، التي قُرر لها أن تتوقف في لندن. ولكنها، " ثياب الامبراطور "، " المتحف الخيالي"، " نافذة على الأفق البعيد"، " الموقف النقدي"، ستطلع ثانية في صحيفة عراقية أخرى، قد تكون داخل الوطن هذه المرة، أو في المنفى، الذي سيمتد أسوة بالملايين من العراقيين. لم أشعر بفاعلية نصوص التنوير العقلي فيما اكتبُ، وما يكتبه نفر من العراقيين والعرب قلة، إلا في المرحلة الأخيرة. خاصة بعد ردود الأفعال الإيجابية التي تلقيتها من كثيرين، حتى لو كانت متضمنةً اعتراضات وخلافاً. الاعتراض والخلاف هنا يمنحان للفاعلية الإيجابية مذاق الحياة.

التنويرُ العقلي ما كان ممكناً قبل هذا العقد الأخير، عقد " المقابر الجماعية "، وعقد " التدخل الأجنبي "، و" عقد انهيار السيادة الوطنية". فهذه العناصر أرخت كثيراً من أسلاك الاندفاعات الثورية والانقلابية المنافية للعقل، التي كانت مهيمنة طيلة نصف قرن. هذا العقد سيشكل لكل التاريخ العربي القادم ما تشكله الافتتاحية الموسيقية التي تنطوي على الثيمات الأساسية للعمل الأوبرالي. لأنه ينطوي على بذور عودة سيادة الإنسان ، وتلاشي الدكتاتوريات العربية التي خرجت من أكذوبة

السيادة الوطنية، وزوال الأنظمة العقائدية (مدنية أو دينية)، وشيوع الديمقراطية التي تمنح للإنسان الأضعف، وللطائفة، أو القومية الأصغر، الحق بالمساهمة الفعالة في بناء الحياة. ستُطفئ الأحزاب الثورية شموع ثوريتها لتلتحق بإضاءة الاقتراح والتصويت والحوار، التي هي إضاءة الحياة. ستنتقل حرارةُ الإيمان بالله ثانية من جذوتها في حافّات السكاكين وفوّهات البنادق ودخان الكراهية إلى ما يجب أن تكون عليه في القلب المتأمل. سوف يعلو ثانية صوت المؤذن الآسر على صوت مكبرات صوت المؤلب على الموت والظلام. نحن نسمع آخر صرخات الغريزة باسم الدين، ولكن لا بأس من سماع غرائزنا السوداء إذا ما كانت الأخيرة. ستبدأ الثقافة المتعافية الهادفة إلى بناء الإنسان الأنبل والأجمل مع بدء التربية المتعافية. ستلتحق القصيدة من جديد متشبثة بهالات أبي نؤاس وأبي العلاء وشكسبير والخيام وطاغور، فالتة من قبضة شاعر القضية والثورة، ومن العبوات الناسفة لغرائز البحث عن أعداء.

إلى جزر الرمل سوف نعبر دجلة ثانية وهناك ننتظر الفجر دون مخاوف. لن يسألنا مرتاب: ما هو موقفك، وأين هويتك، ولمن تنتسب؟ سنقول ملء الفم: لا موقف لنا، ولا هوية، وننتسب للأشجار. سنرجئ قراءة الرواية إلى حين لنعلّم الذي لا يقرأ كيف يقرأ. سنضحي بالساعة العميقة مع بيتهوفن، من أجل ساعة حوار لتحرير العقل المعتقل لصديق ضحية.

مرحلة الإعداد تتطلب سعة أفق لا يملكها إلا العقل التنويري. الكتّاب الذين اكتشفوا أي فردوس في هذا العقل يتضاعفون مع الأيام. ما إن يتعثر أحدهم متردداً، حتى تهمّ به " المقابر الجماعية " محفزّة منددة. الأغاني التي كانت تتزاحم في سوق الإعلام عن السعادة والحب والإخاء كانت دليلاً قاطعاً على افتقاد السعادة والحب والإخاء، ولذا ستتبخر دون

أن تخلف حتى فراغاً. في الحياة الديمقراطية لن تنشغل القصائد والأغاني بالكلمات عن الحياة المفتقدة. سنُسعد ونحب ونتآخى بدل أن نكتب: نحن سعداء وأحباء وأخوة. أما الأغاني والشعر فسيذهبان عطاشاً إلى النهر المتدفق الذي حرما منه، نهر الحياة الذي يصل الظاهر بالمستور.

سنحاول من جديد إعادة اكتشاف عالمنا الثالث، وستدهشنا الثروة الروحية والمادية التي فيه. لا لسر غامض، بل لأن الرغبة بالحياة الأرضية ستجعلنا نلتفت ببساطة إلى الحضارة الغربية الجديدة برغبة التعلم، دون أحقاد عمياء مصدرها الحسد والعجز عن المواكبة، ومركبات عقد النقص!

سنُخرج النظرية من الخبرة، ونستبدلها كما نستبدل رداءً، إذا ما رأينا صلاحيتها موضع شك. لن ندع راية ترتفع على قامة الإنسان فينا. لن ندع نظرية كلما تراكم عليها الصدأ ازددنا عبادة لها وتقديساً.

الشرائح العراقية، التي اعتادت إحالة كل مسعى لبناء الحياة إلى معترك مصالح شخصية، هي الوليد المشوه لسنوات سيادة العقيدة النظرية والقوى اللفظية. هذه الشرائح كانت سيدة وما زالت في المسعى الظاهر لبناء العراق الجديد. ستحافظ جهدها على إدامة الهواء الفاسد داخل السياسة والإعلام والثقافة. ستملأ بطونها وخزائنها، متعجلة متوترة. ولكن لا بأس، لأن المغني المقبل بقيثاره سيحتاجهم ديكوراً لمشاهد المقابر الجماعية على مسرحه التراجيدي. سيصبحون مع الأيام المتسارعة تاريخاً. أو صفحات منسية في كتاب.

هذا العقد من الزمان سيُدخلنا التاريخ الحديث ربما لأول مرة. فهل أشكر المصالح الأمريكية والبريطانية؟

ربّ ضارة نافعة!

(٢٦/٦/٠٣)

الفهرست

للمؤلف

شعر

حيث تبدأ الأشياء

أرفع يدي احتجاجاً

جنون من حجر

عثرات الطائر

مكائد آدم

قارات الأوبئة (ترجمها الى الفرنسية سعيد فرحان تحت عنوان (Continent de douleurs

قصائد مختارة (القاهرة)

المجموعة الشعرية (جزءان)

السنوات اللقيطة

ابتعد مأخوذاً بالضوء (مختارات - القاهرة)

آخر الغجر

كتب أخرى

من الغربة حتى وعي الغربة

آدمون صبري (دراسة ومختارات)

مدينة النحاس

ثياب الامبراطور

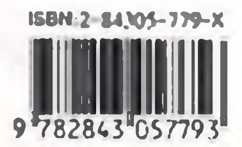
الفضائل الموسيقية

العودة إلى گاردينيا

يوميات نهاية الكابوس



تحـول النص الخـيـالي، والنص النظري، بين يدي المبـدع والدارس إلى يوتوبيا، مثقلة بقناعة قابليتها للتطبيق العملي. صار الشـاعـر -بدل السعي للكشف عن التبـاسـات الشـرط الإنسـاني، وإضـاءة الأركـان المعـتـمـة، أو نصف المضـاءة في الإنسان - يسعى - على النقيض - إلى فرض حلول سحرية بقـوة الكلمـة، داخلاً المعـتـرك الأرضي، يداً بيـد مع المغـامـر السياسي، لتطبيقها. طبعاً عادة ما يكون الشاعر أو الكاتب الخيالي، لضعف تأثيره العملي وضعف حيلته، مع السياسي، أو تحت ظله، أو خلفـه، يزوّده بدفق المشـاعـر التي يفـتـقـدها الأخير، ثم مع الأيام يجد نفسه وقد تقزّم إلى مـؤيد ومطبّل، للسياسي الذي تسلم زمام السلطة.


ISBN 2-84305-779-X